الاغتراب

تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين وأوضاعهم

تأليف

طالب ياسين

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

٣٠٢

طال طالب علي محمد ياسين

الاغتراب : تحليل اجتماعي ونفسي لإحوال المغتربين

وأوضاعهم/طالب علي محمد ياسين . ـ عمان :

(د. ن)، ١٩٩٢

(١٥١) ص

ر.أ (١٩٩٢/٢/١٢٨)

١ ـ علم النفس الاجتماعي أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

تصميم الغلاف بريشة الفنان

جمال يعقوب سلوم

مقدمة

الاغتـراب مسألة مهمة من مسائل الحياة، عشنا في ترهاتها زمنـاً طويلا، نعـانِي ونشقى ونفرح ونحزن ونسعد، تُقلِّبُنا ظروف الاغتراب كيف شاءت، وتُسقطنا إلى دروبٍ سحيقة تارة وتنقلنا إلى الأعـالي تارة أخرى!!، وهكذا نحن نعيش في عالم الاغتراب، تشقى فيه حواسنـا ومشـاعـرنـا، وتتزايد آلامنا، نحس بكل هٰذه المشـاعر الأليمة، ونمتصُّها في داخل أنفسنا، دون أن يشعر بنا أحـد، ودون أن ندور في خَلَد أحـد، نقاسي ونتجرع في داخل أنفسنا ويلات مشاكلنا، ونتجلد!! ومع هٰذا كله لا يَنظر إلينا الناس إلا نظرة واحدة، وهي أن المغترب صاحب مال وثراء عريضين وهو صاحب الحظ السعيد!!، هٰذه نظرة أهالي مجتمعه إليه!!، إنهم يحسدونه على نعمته التي يعيش في كَنَفِها!!، ولكنّهم في نفس الوقت لا يقدِّرون تلك الكوانف النفسية والمعنوية العميقتين اللتين تكـادان تقتـلان نفسه!!، ولكن مع الأسف لم يستطع أحد أن يغوص في أركان نفسه العميقة، أو أن ينظر في داخل هٰذه البئر لِيَرى ما بداخلها!!، يظنون أنّ النَّبع الصافي والماء الزلال يترقرقان في داخلها!!، ولكن ما علموا في أيِّ يوم من الأيام أن هٰذه البئر تحتوي في داخلها ركامات من الأحزان والهموم والمشاكل والكدر!!.

ولهـذا فإنني في كتـابي هٰذا قد تعـرضت أولا إلى تعـريف الاغتـراب ومـا يعنيه وما هي دوافعه، ثم عرجت ثانيةً إلى علاقة المغترب بأهالي البلاد الذين يقطن بينهم. ثم تعرضت بعد ذلك إلى علاقة المغترب بالمغتربين الآخرين، ورأيْنا كيفية العلاقة التي تتحكَّم بين هٰذه الأخـلاط والجنسيات المختلفة!! ثم ذهبنا بعد ذلك لِنَرْسُمَ العلاقة بين المغترب مع أهالي مجتمعه وأهله حينما يعود إليهم في أثناء إجازته، وكيفية تصرُّفه في ضمن هٰذا الاطار، ثم شرحنـا فوائـد الاغتـراب وأضـراره وَبَثَثْنـا بعض النّصـائـح والتـوصيات، التي من شأنهـا أن تعـطي لهذه المسألة حقها من العناية والتمحيص وعدم الاهمال الذي خَيَّم على هٰذه الناحية زمناً طويلا! ، هٰذا على الرغم من تلْك المفاجآت المذهلة التي أَحْدَثَها الاغتراب في مجتمعاتنا على مرِّ السِّنين الماضية، وبالأخص في هٰذه الفتـرة بالـذات، وبعـد واثنـاء الأزمـة الأخيرة التي أعـادت مجموعات كبيرة مؤلفة بالآلاف دفعة واحدة إلى أوطانهم!!.

أرجـو من الله تعـالى أن أكـون قد وُفِّقْتُ في عرض هٰذا الموضوع، وأعطيته من جهدي ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وإذا كنت قد قَصَّرت، فأنا كإنسان من البشر لا أدعي غاية الكمال، ولن أستـطيع أن أرتقي إليهـا!! فالله سبحـانه وتعالى هو الكامل وهو المحيط بكـل شيء علمـا، وما عِلْمُنا إلاّ ذرَّةً من هباء في فضاء

شاسع واسع، لا يستطيع أن يسعه إلا العليم الخبير، لا إله إلا هو وحده، وصلّى الله على محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

المؤلف

طالب ياسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الاغتراب

ما معنى الاغتراب؟

للاغتراب عدّة وجوه من المعاني والدِّلالات، فمنه الاغتراب عن الوطن إلى جهات بعيدة ونائية عنه، ومنه أيضا الاغتراب النفسي وذلك حين يشعر المرء أنه يعيش غريباً بين أبناء مجتمعه، ومنه أيضا اغتراب المرءِ عن نفسه، وذلك حينما تنفصم عُرى الوِثاق بين الإنسان ونفسه، وهناك أيضا الاغتراب الذي ينفصم فيه الإنسان عن أهله وأصدقائه، ويهرب إلى مجتمعات أخرى، بعيدة عنه من ناحية الصلات والقربى، وكذلك بالنسبة للعادات والتقاليد المتوارثة، فيهرب إلى مجتمع آخر غير مجتمعه، ليكوّن فيه أصدقاء جدد، ليعوّضوه عن أهله وأصدقائه، أو مجتمعه الصغير الأصلي، وهكذا فإننا نجد للاغتراب عدة معاني ووجوه، نحن بحاجة إلى أن ندخل في أبوابها حتى نستطيع أن نتعرف عن كثب على نواحي الاغتراب التي تخص هؤلاء الذين شدُّوا رحال الغربة من أجل التحصيل الماديِّ، خاصة في البلدان العربية.

وإذا ما ألقينا نظرة على كلمة «اغتراب»، فإنه يتهيأُ لنا، منذ الوهلة الأولى أنها عبارة عن سفر ومسافرين، وبُعْدٍ عن الديار والأهل، سواء أكان ذلك السَّفر في بحر أو جوّ أو برّ، تماماً مثلما نجد كثيرين من مغتربينا يَشُقّونَ البراري والصَّحاري، بسياراتهم

المحمَّلة بالشُّنط الضخمة في داخلها، ومن على ظهرها، وتراهم على الطرقات، يأخذون قسطاً من الراحة، على أقرب محطة محروقات أو مقهى أو دكان أو مكان لِظِلّ يَحْتَمُون فيه من أشعة الشمس المحرقة خاصة في الصَّيف، حينما تكون أشعة الشمس تتأجَّجُ لهيباً محرقاً أو غُبارا مُلْهباً لأجهزة التنفّس التي لا تستطيع أن تلتقط الأكسجين لشدة هٰذا المناخ القاسي إلا بكل صعوبة ومشقة.

وَبِصفَتي كإنسان قد عاصر الاغتراب واكتوى بناره سنوات عديدة حتى وإن كنت قد جَنَيْتُ من ثمارها الشيء القليل، وهٰذا نَمَطٌ ينطبق على أمثالي الكثيرين الذين لم يستفيدوا من الغربة غير عنائها والوقوع في مطبَّاتها الكثيرة المتعددة، وإن كنت وأمثالي قد جَنَيْنا بعض الربح المادي، الذي لا يمكن أن يقاس بِمَدى العناء والمجاهدة التي يجاهدها المغترب في بلاد تختلف عن بلاده في كثير من النواحي، على الرغم من أنني أعرف الكثيرين ممَّن أَمْضوا في الغربة، زمناً طويلا، يفوق أكثر من ثلاثين سنة، إلا أنَّ هؤلاء لم يستطيعوا في يوم من الأيام أن ينصهروا في داخل المجتمعات التي عاشوا فيها، مثل هٰذه المدة أو حتى أن يتأَقْلَموا مع أبناء هٰذه المجتمعات، التي اغتربوا فيها وذلك يرجع لسبب واحد أُعْتَبره رئيسيا، وهو اتساع هُوّة النَّظرة السحيقة ما بين المواطن وبين المغترب. فالمواطن تظل نظرته لهذا المغترب نظرة تعتمد على أساس أنه شخص مادي فقط، تَرَكَ وطنه وأهله وأبناء عشيرته، وجاء من أجل أن يعوِّض نفسه ببعض الحرمان الذي افتقده في بلاده،

والمـواطن يكـوّن نظرته على أن هٰذا الشخص قد جاء من بلاده جائعاً محروماً، وقد كان ملقى على أرصفة الشوارع، وها هو يجد نفسه الآن وقد حصل على مرتب أو عائد مادي لا بأس به، ثم هو يعيش في بيت أو شقة لم يحصل على مثله أو مثلها في بلاده، ثم هو يركب سيارة فخمة لم يتخيل في حياته أن يمتلك مثلها. ولولا أن جاءت به المقـادير إلى هٰذه البلاد ـ أي بلاد المواطن ـ لَبَقِيَ إنساناً معدوماً محروماً.

وإذا نحن أمعنا النَّظر في هٰذا التفكير الذي يكونه المواطن تجـاه هٰذا المغترب، فإن ذلك يعود لأسباب كثيرة، أستنتج منها سبباً رئيسياً يعود إلى سبب تَشَبُّثِ المغترب ببلاد الاغتراب على الـرَّغم ممـا يعـانيه من شقـاءٍ وتعبٍ وصبرٍ ومصابرة. فَصَبْرٌ على الاضطهاد وَصَبْرٌ آخَرَ على تلك النظْرة السَّيئة التي ينظرها أهالي البلاد للمغترب، تلك النظرة التي تنبعث من كمّ متراكم من الأزدراء والاحتقار على شخصية تركت وطنها وأقربائها وأهليها، وامتطت ركاب الغربة، تبحث عن المادة وتلهث وراءها بأي ثمن، مهما عظم هٰذا الثمن، حتى ولـو كان على حسـاب النَّفس والكـرامة والصحة، وأمور أخرى جُلّها معنوية ونفسية أيضا.

أما نظرة المغترب إلى أهالي البلاد، فهي نظرةٌ تتجلّى لنا، من تلك النظرة العميقة التي تنبعث من نظرة المواطن له، فما دامت نظرة المواطن تتجلّى بهذا الشكل الذي يحمل الاحتقار للمغترب، فإن الردّ من المغترب هي نفس النظرة التي تنطوي على السُّخط،

وعلى الاحتقـار للمـواطن، إلا أن الأمـر يختلف في تفسير هٰذه النقـطة، فالمـواطن يستـطيع أن يفصح عن ازدرائه وعن احتقاره للمغتـرب بكل علانية ووضوح ودون أي خوف أو مردود عكسيّ سَيٍّ يتـرتب عليه، ولهـذا فإنـه من النـاحية النفسية، يفـرغ كَبْتَهُ الشُّعوري أمام المغترب مباشرة، دون أن يحتاج إلى تخزينه في اللاَّوعي أو اللاَّشعور، وهٰذا هو العكس بالنسبة للمغترب، الذي لا يستـطيع أن يُبْـدي سُخْـطَهُ تِجـاه أيِّ تصـرُّف لا معقـول من المواطن، ولهذا فإنه يلجأ إلى طريقة الكبت أو التخزين والتي غالبا ما يضيق بهـا هٰذا الـلاَّشعـور، مما يتولَّد عنه في نهاية المطاف اضطرابٌ نَفْسي وانفعالي، يجعله غالبا غريبا في تصُّرفاته وسلوكه!!.

إذن، فالاغتراب هٰذا الذي نودّ الحديث عنه، هو الاغتراب الذي يدخل في إطار البُعْد عن الوطن، وما يولِّده هٰذا الاغتراب من أثـر في نفس المغترب سواء عليه أو على افراد أسرته الذين هـم يشـاركـونه أيضا في نفس التَّبِعات النَّفسية، سواء أكانوا يعيشون معـه، أو يعيشون منفصلين عنه في بلادهم، لأنهـم حتى ولو لـم يكونوا مُقيمين معه في ديار الغُربة، فإنَّ هناك شعوراً وحنيناً سيظل يلازم الطرفين طوال مدة الافتراق!!.

وسـأحـاول إن شاء الله أن أترك لقلمي الحرية في أن يخط حروفـه على سجيته دون أن أُحاول اعتراض سبيله، إنطلاقاً من واقـع التجـربـة التي عاصـرْتُها كَمُغْترب عاش زمناً طويلا يقارب

الـ عشرين عاما، عاشها في بلاد عربية آسيوية وافريقية فكان له أن يترجم هٰذا الواقع الذي عاشه أو هٰذه التّجربة التي أَلَمَّ بها، وأن يصَـوغهـا في هٰذا الكتـاب، كي تكون لك ـ عزيزي القارىء ـ إلْمـامـات عن ظروف هؤلاء الـذين تراهم يَعُجّون بسيّاراتهم في بلادك وقت الصيف، وتـراهـم يَنْهـالـون على البلاد، من الطرق البرية، وهم يحملون أمتعتهم فوق سياراتهم، فيتراءى لك للوهلة الأولى أن هٰذه الأمتعة لا تحتوي إلا على شيء واحد فقط، ألا وهو الأموال والذَّهب الْمَحْشُو في داخل تلك الشُّنط الكبيرة، وما أَراكَ في دخيلة نفسك، إلاَّ وأن تنظر إليهم نظرة حسد على تلك الأموال التي تتخيَّلها، في حقائبهم، ولكن أما عَلِمْتَ أنَّ هٰذه الحقائب الضَّخمة لا تحتـوي إلاّ على أَلْبستهم وألبسـة أطفـالهم وبعض الأمتعة الأخرى التي هي عكس ما تتخيل، أمتعة نفيسة ونادرة!!.

سأتـرك ـ عزيزي القـارىء ـ لِقَلمي أن يتنـاول كل ظروف المغتـربين بكل حرية كما أَسْلَفْتُ لكَ قبل قليل، كي يأتي هٰذا الكتاب عفويّا بسيطاً، يتكلَّم عن حقيقة بلاد الاغتراب كي تتضح لك الحقيقة عن أمور قد يجهلها كثير من الناس، وعن تصوّرات أو خيالات هي بعيدة عن الـواقـع، وأقـرب كثيراً إلى الخيال!، فالاغتراب مسألة تتعلق بالإنسان قبل أن تتعلق بالمادة. لقد أخطأنا حين نظرنـا إلى الاغتراب على أساس أنه مادة فقط، وأنه تقوية للاقتصاد الوطني!!. ولكن ثَبَتَ لنا بعد التجارب، خاصة بعد هٰذه التجربة الأخيرة، وعودة المغتربين ونزوحهم عن بلاد الاغتراب،

بشكل جماعي وما سَبَّبَهُ هٰذا من إرتباك في أمور ومجالات كثيرة سواء منها الاجتماعية أو الاقتصادية أو التعليمية، فإنه قد اتضح لنا الآن، هُراءَ تلك الادِّعاءات التي كُنَّا نَدَّعيها وَنَنَسُجُ عليها أحلامنا، في أنَّ أرض أو بلاد الغَيْر ستنتج لنا الخبز، وَسَتُدِرُّ علينا اللَّبَن وَسَتُلْعِقُنا وَتُلْعِقُ أجيالنا بملاعق العسل المُصَفَّى، على طول الأزمان والأجيال القادمة.

نعم ـ عزيزي القارىء ـ دعنا نتخلص من نظرتنا التي آمَنَّا بها زمناً طويلاً وَطَوَيْنا سِنيناً من الماضي نَفْترشُ عليها أياماً كنَّا نتصَّورُها حُلوة، ولكن أَمَا عَلِمْنا أنَّ بَعْدَ الحُلْو يأتي المُرّ!، وأنَّ الخير كل الخير، غالباً ما يأتي من داخل وطن الإنسان ومن نتاجه والاعتناء بأرضه فهي الكنز، والذَّخيرة الدائمة من الناحيتين النفَّسية والمعنوية، وهي الذخيرة الحيَّة، التي سَتَحْمي أجيالنا من شرّ عدوٍّ فتَّاك، يَفْتُك بنا وبأجْيالنا، هٰذا العدو اسمه «الغربة»!!.

أسباب الاغتراب

كلُّنا يعرف مدى قيمة المادة بالنسبة للإنسان، فهي الشريان الحيوي المُغَذِّي لِكلِّ حركات الإنسان، في أي مكان أو زمان، فالمـادة هي عَصَبٌ قوي تستـطيع أن تَدْفَعَ بالإنسان إلى جهات فَوْقيَّة لا يستطيع من دونها، مهما بلغ مُؤَهِّله العلمي أن يصل إليها، فالمــادةُ في أيامنـا هٰذه طَغَتْ على العلم، وأصبـح العلم طَوْعَ المادَّة، يتحرك في دائرتها وفَلَكها، فأصحابُ الملايين في أيَّامنا هٰذه، وأعنى الدّول الغنية على وجه الخصوص أصبحت تستورد أصحاب العلم، وتستفيد من علومهم تماما مثلما تَسْتَورد أيَّةَ بضائع أو سِلَعٍ تحتـاجُ إليْها، ولهذا فإن تعامل هٰذه الدول مع الإنسان المُستَوْرد[1]، لم تَرْتَقِ إلى النِّسبية التي يبغيها، وهٰذا بطبيعة الحال سبب من الأسبـاب الرئيسية، أو هو بمعنى آخر المفتاح الذَّهبي الذي يمتلكه المواطن في جَيْبه كيْ يتعالى به على الأفراد العاملين في بلاده ويخضعهم إلى مزاجه وغرائب سلوكه، ومن ثَمَّ بَعْدَ ذلك يُقَـوِّي إحسـاسهم ومشـاعـرهم في أنّهـم دونـه في المـال والجاه

(١) هنـاك بعض الـدول العربية الآسيوية التي تُطْلق على المغترب العربي كلمة «أجنبي» أو «خارجي»، وهناك بعض الدول العربية الافريقية تطلق كلمة «إمِّزقْري» وهي بمعنى مُسْتَوْرَد.

والحسب والنَّسب والإنتمــاء إلى البلد، فبــلاده تتميَّزُ عن بلاد المغترب في الثراء والجاه والسُّمعة والصيت. وما دام الأمر هكذا فإنـه لا بأس من أن يُذْعن العـامـل المستـوْرَد لِكل هٰذه الأمور، ويتنازل عنها لصالح المواطن الذي لا يلبث أن يتقوَّى مركزه، ما دام هٰذا المغتـرب يُقِـرُّ بهذه الصِّفات له مقابل أن يحصل على المـادَّة، وحينمـا يجـد المواطن أنَّ بلاده مرغوبة كل هٰذه الرَّغبة الشديدة من قبل العامل المُسْتَوْرَدُ، على الرَّغم من سوء المعاملة أو سوء المناخ أو قسوة الطبيعة التي لـم يتعوَّد أَصْلاً على العَيْش في مثلها، فإن قبوله العيش في مثل هٰذه الأجواء أو المناخات التعامليَّةِ يُبْقي المغترب في صورة صغيرة في عَيْن المواطن، وستبقى هٰذه الصورة تَضْمَحِلُّ تدريجياً إلى أَنْ تصل إلى حَدِّ البهوت والاضمحلال.

ومن هنا فإنني أُحب أن أُضيف نقطة في هٰذا السياق، وهي أن عملية النُّزوح أو الهجـرة الجماعية الكبيرة من دول متعددة إلى هٰذه الأقـطار المُسْتَوْرِدَهُ للعَمَالات أو هي مُسْتَوْرِدَةٌ للإنسان ـ إذا صَحَّ هٰذا التعبير ـ فإن هٰذا النُّزوح الكبير هو الذي يزيد في حجم صورة المواطن ويَنْفُخُ من حَوْله هالةً لامعةً برَّاقة ذاتُ أَلْوان متميِّزةً تجعلُهُ يكبُرُ ويكْبُرُ في عيْن المغترب، بَيْنما صورة المغترب كما أسلفنا قليلا، تَنْقُصُ أو تَضْمَحِلُّ في عيْنِ المواطن!! وهكذا فإننا نجد مراحل الدُّونيَّةِ تَسيرُ إلى أسفل عند المغترب!! بينما مراحل الفَـوْقيَة ترتقى إلى اعلى لدى المـواطن!! مما يخلق اتساعا في

المسافات بين هٰذا الأنموذج «المُسْتَوْرَدُ» وهٰذا الأنموذج «المواطن» ! ! ، وما دام الأمر أصبح هكذا، فإن الأمور لن تصل إلى هٰذا الحد ولكننا حينما نجد المغترب يُقِرُّ بفَوقيَّةِ المواطن، فلا بُدَّ له وأن يَخْضَعَ كل الخضوع له، وإلا فإنَّ أيَّ تصرُّف منه فإنه سيصطدم بجدار التَّرحيل عن البلاد! ! وهٰذا جِدارٌ ضخم لا يستطيع المغترب أن يعلو فَوْقه، فهو رجل يلهثُ وراءَ المادة ولا شيء غير ذلك يَهُمُّهُ ولهذا فإنه لا بدّ له وأن يتعامل أو يتّصف بصفات لم يمتلك مثلها من قبل، فقد يلجأُ إلى أُسلوب التَّمويه والمراوغة والكذب والنِّفاق والتَّمَسُّحِ بأكمام الآخرين ومُداراتهم وَذَلْقِ اللِّسانَ المعسول أمامهم كيْ ينال رضاهم ويأمن سخطهم وغضبهم! ! ، وهكذا فإننا نجد المسألة تسير في اتجاهين متعاكسين: هٰذا المواطن الذي لم يكن على هٰذه الدرجة من الأُبَهَّةِ نراه وراء هٰذا التبجيل وهٰذا التعظيم من جانب المغترب وَمُداراتِهِ وخضوعه له، نراهُ يسكن في قَصْرٍ من العاج، رفيع المستوى! ! . أمَّا ذلك العامل الذي يَسْعى وراء المادَّة، فنراه يَعَجُّ في كوخه الفقير يَتَلَوّى بين سياط المسكنة والذلِّ والمداراة! ! ، ولهذا فإن النسبيَّة في نوع التعامل أو المستوى نراها مفقودة وضائعة بَيْن هٰذه التَّراكمات النَّفسية المتناقضة مما يسفر عن أمور أخرى لا شك أننا سنبحثها في المواضيع القادمة إن شاء الله .

لهذا فإن الطغيان الماديّ، يسعى بحجمه الهائل هٰذا، كي يحطم أُسطورة العلم، ويقتلها شرَّ قتلة، تحت جشع الحصول على حُزَم النقود وبريق الذهب، واقتناء الكماليات! ! وإن حصول

المغتربَ على نوع من هٰذا الثراء، لم يحلم به سابقا، يُجبره على تمديد سنوات الاغتراب، كي تصبح عنده بدون تحديد!! فسنوات الاغتـراب عنده شيك مفتوح لا يمكن تحديده بزمن مُعيَّن، هٰذا على الرغم من أنه قبل أن يعتزم على الاغتراب، يكون قد حدَّدَ سنوات اغترابه بسنتين أو ثلاث سنوات تقريباً!!. ولكن حينما يبدأ بالحصـاد المـاديّ فإنَّ شهوة الطمع تَقْوى في باطنه ثم تزداد مع الـزَّمن، حتى تصبـح القنـاعـة عبارة عن كلمة ضائعة بين أكوام الدَّنانير، أو الدراهم التي يمتلكها.

فالمادة إذن، وليس شيء آخَرَ غيرها هي السبب الرئيسي في هجرة ونزوح العاملين إلى بلاد أخرى غير بلادهم، يتحمَّل فيها المغترب صنوفا مُتعدِّدة من السَّلبيات، يجنيها على نفسه ومن ثَمَّ على أفراد أُسرته!!. في حين أن الهجرة قديما لم يكن هدفها الثراء المـاديّ، عنـد كثيرين من النَّـاس خاصَّة حينما نفتتح صفحات التَّاريخ القديم، فقد نجد أنَّ السَّعي وراء العلم والحصول عليه، هو غاية كلِّ عالم، يقطع من أجله المسافات الطويلة ليس على متن طائرة نفَّاثة أو باخرة أو سيَّارة كما في عصرنا الحاضر، وإنما على ظهر ناقة أو دابَّة أخرى!!، ولهذا فإننا نجده مُبجَّلا مُعظَّما في أَعْيُن الآخرين، أو في أيِّ بلاد يَحُطُّ فيها، يتسارعون إليه من أجل أن يتـزوَّدوا منـه ببعض المعرفة وَتَلَقِّي العِلْم، ولهذا فإنَّ صاحب العلم قديماً على الرَّغم من مُكابدته للسَّفر ومشقَّاته في الطريق فإنَّه يلقى الـراحـة والاطمئنان حينما يَحُطُّ في أيِّ بلد يصل إليه!!،

وسيجـد أن من يَدْعونه للإقامة معهم كثيرون جدا!!، هذا على الرَّغم من أنَّ إقامته هٰذه قد تطول أحياناً لِتَصل إلى شهور أو لِتمتدَّ لِتَصل إلى سنوات، وكلّما ازدادت إقامة صاحب العلم بين الناس، كلما ازدادت مكانته بينهم، إلى أن يصبح واحداً من أفرادهم، أو أحد مستشاريهم أو سادتهم!!، أما صاحب المادَّة في أيامنا هٰذه، فهو يقطع مسافات الطريق بكلٍّ سهولة وَيُسْر، في خلال ساعات، يكون قد وصل إلى البلد الذي يريد الإقامة فيه، ولكنّه بعد الوصول تبـدأُ بعدها رحلة المكابدة والمشقَّة، وما عليه حينها إلَّا أن يعُوِّد نفسه على المعاناة الدائمة، وَيُوطِّد نفسه على رحلة السَّفر الطَّويل التي تنتهي، إلا إذا انتهت قنـاعتـه بهـذه المـادة التي يسعى وراءهـا!، ولكن هل يمكنـه أن يُنْهي قنـاعتـه هٰذه بكـل هٰذه البساطة!!. إذا نحن أَقْرَرنَا بذلك فإننا نكون قد دخلنا في ساحة شاسعة من التخريف والتهويم!!.

وضعية المغترب في بلاد الغربة

يتوق المغترب قبل اغترابه عن بلاده للحصول على عقد عمل في الخارج، حتى ولو كان بعضهم يعمل في بلاده براتب جيد ويحصل كذلك على وظيفة أو مركز مرموق، وهو على الرَّغم من ذلك فإن عمليَّة الاغتراب، تظل تساوره بيْن الحين والآخر وَكَأنَّ الغربة قد أصبحت جزءاً من بروتيبلازما الدّم، لا يمكن أن يتخلّى عنها، ولو بأيٍّ شكلٍ من الاشكال، ويعود السَّبب في ذلك - حسب رأيي - إلى تَطَلُّعه وطُموحه الكبير في سبيل تحسين وضعه الماديّ بشكل أفضل وأسرع، وذلك نظراً لِمَا يسمعه عن تحسُّن احوال كثيرين من الناس، الذين عملوا في الخارج، وجاءوا مُحَمَّلين بالأموال والكماليَّات في سياراتهم الأنيقة، ولهذا فإنَّ الغيرة وَحُبُّ المنافسة هي التي تُحَفِّزُه على مضاهاة غيره في كسب المال والمعيشة. هٰذه هي من ضمن الأسباب الرئيسية التي تدعو نفراً من النَّاس كي يغتربوا. هٰذا ناهيك عن أنَّ هناك ظروفاً أُخرى ثانوية لبعض النَّاس خارجة عن هٰذا الاطار تدعوهم للاغتراب، وغالباً ما تكون هٰذه الظروف خاصة بهم، وهٰذا السَّبب في رأيي هو الذي ساعد على الهجرة الجماعية والنُّزوح إلى الخارج، فالمُنافسة بين الناس هي التي شجَّعت الجماعات على النُّزوح بهذا الشكل، هٰذا إذا سُمِح لنا بأن نطلق على هٰذه الهجرة نزوحاً لأن معظم الذين

تركوا بلادهم تركوها يائسين، ثُمَّ هم نزحوا إلى غيرها دون أن يكونوا قد حدَّدوا وُجهة نظرهم من حيث طريقة العمل بشكل واضح، وأعني بهؤلاء تلك الطَّبقة العاملة التي تهاجر على حسابها الخاص، وترتبط بالقطاع الخاص، سواء ذلك بالشركات أو الأفراد الذين غالباً ما يتاجرون بتأشيرات الإقامة التي يمنحونها لهم، فقد تجد كثيراً من أفراد هٰذا القطاع يحصل على عدد من التأشيرات أو الفِيَز ثم يحملها معه ويسافر بها إلى الدول التي هي بحاجة ماسَّة إلى تصدير العمالات، وبعد ذلك يعمل على بيعها بأسعار عالية جدا!! ثم حينما يسافر هٰذا العامل المُشْتَري للتأشيرة، تراه يدفع لِكَفيله مبلغاً من المال في آخر كل شهر لزاما عليه، وإلا هَدَّده بالتَّرحيل إلى خارج البلاد!!.

على أيَّة حال، مهما كانت وضعية المغترب في بلاده قبل عملية الاغتراب، فإنَّه حينما يحصل على التأشيرة من سفارة البلد الذي ينوي الهجرة أو النُّزوح إليه، فإنَّه قد تَتَمَلَّكهُ هالةٌ من الفرح والسرور، وكأنَّه قد خُلِق من جديد، لأنه يعتقد أنه سَيُمارس حياةً أخرى جديدة، هٰذه الحياة قد تَتَراءى له منذ الوهلة الأولى شريطاً من التخيُّلات، فهو يَحلُمُ بِسَكَنٍ مُريح، وفراش وثير وَسُرُرٍ ومفروشات وأدواتٍ كهربائية مُتنوِّعة، معظمها لم يَرَها في بلاده، أو حتى لم يسمع بها قطّ، ويحلُمُ أيضاً بسيَّارة أُميركيَّةٍ كبيرة الحجم، مُكَيَّفة وَوَثيرةِ المقاعد، مُجَهزة بالأجهزة الألكترونية المتقدِّمة. أو حتى على الأقل بسيارة يابانية جديدة أو نصف جديدة، ثم يحلم

بتحقيق حُلْمه الأكبر، وهو عبارة عن رصيد ضخم من العملات الأجنبية، يضعها في إحدى البنوك، أو إقتناء قِطَع مُختلفة من سبائك الذهب والأُونصات السّويسرية ويحمل دفتر شيكات يُحْفَظُ بشكلٍ مُتْقن في جَيْبٍ إحدى الشُّنط التي لا تَنْفَتح ولا تَنْغلق إلاَّ برَقم سِرِّيٍّ يحتفظ به في داخل ذاكرته فقط، وحينما تطأُ قَدَمَا المغترب بَلَدَ الاغتراب فإنَّه ينزل من الطائرة أو السيارة التي أَقَلَّتْهُ مَزْهُوّاً فَرِحاً، ثُمَّ يبدأُ بالسُّؤال عن مكان عمله الجديد أو عن الكفيل الذي ينوي العمل عنده، فإن كان هٰذا العمل في إحدى المدن الكبيرة، فإنني أعتقدُ أنه قد خَفَّفَ من الآمه الشَّيءَ الكثير، وإنْ كان قد وَجَدَ عمله هٰذا سيكون في إحدى القرى أو الهِجَرِ البعيدة، فإنه بمجرد وصوله إلى تلك القرية أو الهجرة، فإنه سَيُصَاب منذ الوهلة الأولى، بقارعَةٍ تَقْرَعُهُ على أُمِّ رأْسه كما يصاب بعدها بالدُّوار والتَّلَوّي، وَنَراهُ ينظرُ يميناً وشمالاً إلى تلك الكُثبان الرَّملية التي تترامى من حَوْله هنا وهناك، حتى تكاد هٰذه المناظر تَخْنُقُهُ وهو في مكانه، فالتَّنفس عنده يصبح بطيئاً جداً ومتلاحقاً، ثم تَشْخَصُ عَيناهُ إلى الأفق البعيد من حوله فَتَصُدُّهُ حواجز الرِّمال والطرقات الرمليةِ أو الفيافي المترامية من حوله، التي يَتَخَيَّلها منذ الوهلة الأولى غُولاً بَشعاً يحاول أن يَنْقَضَّ عليه لِيَنهشه ويفترسه وَيُريح الناس من وجوده، ولهذا فإن أول ما يتراءى في مخيلته أمام هٰذا الواقع الجديد، هو أن يبحث له عن أشخاص من نفس جنسيَّته كي يحاول أن يفرغ من شُحْناته النفسية التي أَلَمَّت بْه، فيحاول أن يُداري نفسه وَيُقَويِّها، ويتحامل عليها، فَيَجُرُّ نفسه مُتَثاقلاً إلى

أقـرب النَّـاس من نفس جنسيته أو على الأقل من جنسية أخرى غريبة، كي يضع رأسه في رأسِها، وَيُفرغ همومه عندها، وحينما يَحْصل على طلبه، فإنَّه يجلس بين أقرانه المغتربين مَغْشِياً عليه، وكأنه قد أصابه مَسٌّ من الجنّ، فيجلس مُطَأْطِأً الرأس مخذولاً، وفي هٰذه الآونة، فإن أقرانه هٰؤلاء الذين يجلس بينهم، يحاولون أن يرفعوا من معنويته، فيحاول أحدهم أنْ يأتي بِنُكْتَةٍ، أو أن يتحدث عن إحدى مُغامراته في الصحراء، وكيف استطاع أن ينتصر على الـوحش الـذي كاد أن يقتله! وكيف استـطاع أن يتحـدَّى رمـال الصحراء حينما غَرَزَتْ سيارته في إحدى الكثبان الرملية!! أو كيف استطاع أن ينجو من تَغَوُّل الصحراء حينما تَاهَ في فَيافيها وَبَراريها الشاسعة وكيف الْتَقَطَهُ أَحَدُ البَدْو المارِّين في ناحيته، وكيف نقلوهُ إلى خيمتهم، وكيف تَمَّت مُعالجته هناك!!.

كل هٰذه الحكـايات تُسْرَدُ على مَسْمع صاحبنا وهو يجلس مخذولا مُنْحني الرأس، وهم بِدَوْرهم يحاولُ كلُّ واحدٍ منهم، أن يُفْرِدَ نفسه، ويصنعُ من نفسه بطلاً أو اسطورة ضخمة، تتطاول على الصحراء، أو أن تحاول النَّيْل من سَطْوَتها وقَسْوَتها!! هم يحاولون التَّباهي وَنَفْش الرِّيش، وهو بدوره ينكمش وَيَضْمحل!! وفي تلك الآونة يَمُرُّ به شريطٌ عَبْرَ مُخَيَّلته من صُوَر أُسرته أو أَبنائه أو اقربائه. ذلـك الشارع الذي دَرَجَ فيه! وتلك القرية الوادعة التي تَرَبَّى في أَحضانها، حتى تقوَّى واشتَدَّ ساعده!! والدُهُ أو والدته اللَّذان رَبَّياه صغيرا. وها هو في ظرف قصير من الزمن يبتعد عنهما ابتعادَ الطير الذي يفرد بجناحيه في الفضاء ويبْعد عبر الأفق البعيد! صُوَرٌ كثيرة

تتراءى أمام هٰذا الإنسان، الذي حاول أن يدفن همومه وأحزانه بين فريق من أبناء جَلْدته، إلَّا أنَّهُ لم يحصل منهم إلا على قلوب صخرية قاسية، لم تستطع أن تستوعب حتى ولو قَدَراً ضئيلا من الحزن المُتَراكم على هٰذه النفس التي أصابها الخذلان منذ الوهلة الأولى، بعدما كانت قبل بضعة أيام تَضِجُّ بالحيوية والقوَّة والنَّشاط!!.

يخرج هٰذا الإنسان إلى مكان عمله في اليوم التَّالي ويحاول أن ينتصر على خذلانه الذي أصابه مُبَكرا، ويحاول أن يستجمع قُوَّته من جديد، فينزل إلى حَلَبَةِ العمل، وصراعٌ مريرٍ أصبح يسكن في داخل نفسه!! ولكن أَمَا تراه ينتصر على هٰذا الصِّراع؟! أم أن الصراع سينتصر عليه؟! وفي هٰذه الحالة، فإنه إمَّا أن يُقِرَّ بخذلانه هٰذا، ويرجع من حيث أتى!! مُصابا بأشدٍّ هزيمة، تجلب له العار من قِبَلِ أعدائه وحتى أصدقائه!! وهو غالبا ما يعي هٰذه الشماتة منهم، وفي هٰذه الحالة فإنه لا بد وأن يصاب بضياع هَيْبته بين ذويه وأقاربه!! ولهذا فإنه أمام هٰذا الواقع المرير، لا بد وأن يضع في نصب عينيه أن عليه أن ينتصر على هٰذا الصراع الذي يغالبُهُ في داخل نفسه، ويظل صاحبنا يشتَدُّ وَيَقْوى حتى يرسي أخيرا على البَقاء وعدم الرجوع إلى بلده مهزوماً، ولكنْ هل أنَّ تحقيق هٰذا الفوز في هٰذا الصراع يُعْتبر في نظرنا انتصاراً نهائيا؟!!.

الجواب على ذلك بطبيعة الحال هو بالنفى، وذلك لأن الصراع مع النفس أولا وأخيرا، سيبقى إلى مالا نهاية، وذلك لأن

أدوات الصراع في بلاد الغربة لا يمكن أن تنتهي بطبيعة الحال، وإذا ما انتهت أداة من هٰذه الأدوات، فإن هنـاك أكثـر من أداة، ستحل مكانها!! إذن فإن الصراع سيستمر، وما على صاحبنا إلا أن يستعد ويناضل، فالصراع قادم إليه من عدة نواح: فالصراع قادم إليه في نفس مكـان عمله، فهنـاك مشاكله مع صاحب العمل، وكذلك سوء طبيعة الجو أو المناخ الذي يعمل فيه، وكذلك متاعبه التي تتـولد بينه وبين أصحابه، وزملائه في العمل، فهٰذه الحياة الصحـراوية التي يعمل في ظلها، تتطلب منه جَلَداً وصبراً، كي يستطيع أن يحافظ على بقائه فيها!! فالمكر والخديعة والحيلة هن من ضمن الأدوات التي يجب أن يستعملها كي يبقى! ومعها شيء من الكذب والنفاق والمراوغة واللسان المعسول، وإذا ما افتقد هٰذه الأسلحة كلها، أو بعضا منها فإنه لا شك سيصاب بالهزيمة النفسية المُروِّعة، وَسَيَرْتَدُّ إلى الوراء، ناكصاً على عقبيه دون أن يلوي على شيء!!.

أمـا إذا كان يمتلك كل هٰذا الأسلحة، فلا شكَّ أنَّ أسلحةً أخرى أفتك منها ستلاحقه وتلوكُهُ كل يوم ألف مرة!، وسيجد نفسه معزولا منبوذا ونظراتُ الأحتقار تلاحقه وتلازمه!!.

وإذا ما أردنا أن ندخل في هٰذا الموضوع بشيء من التفصيل، فإنه لا بد لنا أن نتعرض لعلاقة المغترب بتلك القاعدة العريضة من مواطني البلاد الذين تتداخلُ معاملاته معهم، ثم نتعرض لعلاقته مع فئـات المغتـربين الذين يحتك بهم في مجالات العمل، أو

مجالات الحياة الأخرى، وذلك حتى نقف عن كثب، على تلك الأرضية التي يقف عليهـــا، ويعيش من خلالهـا، طيلة سنـوات اغترابه عن أرض وطنه!!.

علاقة المغترب بالأهالي

إذا ما نظرنا إلى علاقة المغترب بأهالي البلاد التي يعيش فيها، فإننا نجد في واقع الأمر، أن هٰذه العلاقة هشّة ميته، لا تعتمد في أصول علاقاتها، على التساوي، أو كما يقولون، علاقة «النِّد للنِّد» فالمواطن كما ذكرنا سابقا، يشعر دائما بمواطنيته وانتمائه لبلده الذي يعيش فيه، فهو يشعر أنه لا يمكن أن يُقَارَنَ بهذا المغترب الذي ترك بلاده، وجاء يلهث إلى هنا من أجل السعى وراء المال، وتحصيل رغيف الخبز، ومن هٰذا المنطلق فإن مجيء النازحين الأجانب بهذا الشكل الجماعّي الرهيب إلى دول الاغتراب وصبرهم على الهِنات ومصاعب الحياة وقبول الضّيم، يعزِّزُ موقف هؤلاء المواطنين ويطاول من قفزتهم نحو الأعلى، بحيث ينتج عن هٰذا خلق فجوة رهيبة من اتساع المسافة بين نفسيتين: نفسية المواطن التي تريد أن تشبع غرور جوانب العظمة والأرتفاع، فوق نفسية جاءت تلهث لهاثا وراء تحقيق مطلب المادة!!، ومع كل تنازل يتنازل فيه المغترب أمام المواطن عن أي حق من حقوقه، أو بمعنى آخر قبوله واستسلامه للمواطن بشكل تام، لكل أمر من أوامره أو لكل مزاج من أمزجته، مهما كانت الظروف، وفي كافة الأحوال. فكرامته مثلا قد لا يستطيع الدّفاع

عنهـا، مثلمـا يكـون في داخل بلده وبين أبناء جَلْدته واقربائه، فكرامته قد تُخْدش بين الحين والآخر، دون أن يستطيع ردّاً أو حتى الْتفاتاً إلى المواطن الذي صفع هٰذه الكرامة. فإن كان في عمله أو في داخل سيارته أو سائراً في الشارع أو مُتَمَشِّيا في السوق مثلا، فإنه قد يتعرض لإحدى فَلَتات اللِّسان من أحد المواطنين حتى ولو كان يتصرفُ تصرُّفاً طبيعيا لا يوجد فيه أيَّة إساءة أخلاقية أو أي ضرر للغير!! ففي بعض الأحيان قد يكون هٰذا التصرف عاديا تماما، كأن يكون راكباً في سيارته حسب النظام، فيصادف أن يَمُرَّ أحد المواطنين راكباً سيارته يريد أن يعبر إلى الشارع الآخر، ومع أن نظام قواعـد المرور في تلك اللحظة، لا تجيز له قطع الشارع. فإنـك قد تجدُهُ قد عبر أمامه فجأة، مُسدِّدا إليه نظرات الإحتقار والإشمئزاز متمتما له ببعض الألفاظ المفهومة وغير المفهومة التي تَنُمُّ عن معاني السخرية والانتقاص منه «كأجنبي»!!.

وهٰـذا المثـل الـذي أضـربه، ليس هو المثل الوحيد الذي يحدث مع المغترب في بلاد الاغتراب، بل إنه واحد من ضمن عشـرات الأمثلة البسيطة التي تنال من شخصية المغترب بصورة طبيعية. وإنني بهذه المناسبة التي نحن بِصَددها الآن، أود أن أذكر حكاية بسيطة، قد حدثت مع أحد زملائي في العمل، وذلك حينما كان يقوم بعمله ذات يوم، إذ عَنَّ في ذهنه بيتٌ من الشعر، على ما أعتقـد أنـه للشاعر المتنبي، وحينما كان ذلك الزَّميل يستمتع بإلقاءِ ذلك البيت على مهلٍ وأدب جمّ، إذ اعترضه أحد الفَرَّاشين

العاملين في الدائرة، مُتَّهماً إياه أنه يَسُبُّ ويشتمُ غيرهُ من المواطنين أو أن في فحوى شعره تَدَخُّلٌ في السياسه!! وقد حاولت وغيري من الزملاء أن نُقْنع هٰذا الفَرّاش بكل ما أُوتينا من جهد كي يَعْدل عن رأيه ولا يقوم بتقديم شكوى ضده، وقد حاولنا إقناعه أن هٰذا البيت الشِّعري هو لشاعر اسمه المتنبي فقال: «ها . . . إذن هٰذا الشاعر يَدَّعي النبوة، هٰذا لا بد من كتابة شكوى فيه (قولوا: وين عنوانه!! أو وين يسكن!! و . . . في أي بلد!! أو في أي مدينة!! وش هيّ جنسيته)، فقلنا له: هٰذا الشاعر الذي تطلبه الآن قد شَبِعَ موتاً وقد حاكمه أهالي زمنه!! ونَال جزاءه على فعلته النكراء التي اقترفها!!. فقال: «والله يستيهل وألف يستيهل!!».

هٰذا المثل البسيط أو غيره من الأمثلة المشابهة، التي قد تؤخذ بسوء ظن دائما، قد تجعل المغترب يحس بهذه المراقبة التامة عليه، وبالتالي فإنها تعمل على كبح جماح نفسه وتقييد لسانه عن إبداء أي قول أو فعل قد يُفَسَّرُ على أساس الفهم الذي فهمه ذلك الفرّاش الذي مرَّت حكايته!!، ولهذا فإن توجيه هٰذه الهنات له، ودقِّ تلك الأسافين في طريقه، يوما بعد يوم أو بين فترة وأخرى، لا بد مع الزمن وأن تعمل على تحطيم شخصيته، وشعوره بالإحباط ومع كل حادثة لا يستطيع أن يثبت فيها شخصيته كما ينبغي، فإنها لا شك وأن تبدأ بالاضمحلال!!. ومع مرور الزمن يبدأ يساوره نوع من الشعور، في أنه رجل من طراز لا يساوي شيئا، لأنه كما قلنا لا يستطيع أن يقي شخصيته من شرور هٰذه التَّبعات السلبية أو

الهنـات التي ستظل تلاحقه، مما يسفر عن ذلك، وقوع النتيجة التي لا تُحْمـد عقبـاهـا، وهي: طمس هٰذه الشخصية، ومعالم وجودها وكيانها!! فَحقّها هٰذا الضائع والمهضوم يتعالى فوقه حق المواطن!! وكيان شخصيته أصبح معرَّضا أمام هٰذا التيار الجارف للإنهيار!! ووجود شخصيته أيضا هو أصلا غير مرغوب في بقائها في بلاد الغير!!، وهو مع هٰذا الذي يحدث معه أو أمامه، متهالك أشد التهالك في البقاء وعلى التشبث تحت أي ظرف كان تحت وطأ نعال الغربة، حتى ولو كان في هٰذا الظرف خطر على حياته أو على الأقـل تحطيم بطيء لشخصيته!!. فإذن هو لم يحاول أن يوجد لنفسه أو يخلق لها تلك الأرضية الصَّلبة التي يستطيع الوقوف عليها، فهو لم يحاول أن يخلق لنفسه شخصية مستقلة لا تطمسها شخصية المواطن القوية، التي تتحدث دائما من مصدر القوة ومن علو شاهق في المركز!!، إذن نستطيع القول بفصيح العبارة: أنه عاجز كل العجز عن دفع أية هِنَةٍ قد تَلْحق به، فكيف به إذن حين يعمل أو يحاول أن يحقق شخصيته بالمعنى الذي ينبغي لها كما هو موجود عند سائر البشر؟!!. أعتقد أنه قد يستطيع أن يفعل ذلك لو أنه لم يَتَشبَّث بالغربة كل هٰذا التشبث، فلو أنه منذ البداية قد استنكر كل هنة من الهنات التي تَصِمُهُ وصمَّمَ على صفع الغربة ورماها وراء ظهره، ولو أنه امتلك الشجاعة والجرأة، إذن لما تجرَّأ عليه المـواطن أو غيره وضـربـوه بهذا السوط الذي يخشاه خشية الموت ألا وهو التَّرحيل، أو التَّسفير إلى خارج بلاد الثراء والمال!، من هنا إذن تكمن عقدة المغترب. ومن هنا أيضا ينشب المخلب

القوي الذي يُقطِّع نفسه أوصالا!!.

إن كلمة التسفير أو إنتهاء العقد أو العمل هي كلمات ذات وَقْعٍ يكاد أن يُدْمي عَقِبَيْه، ويغمرُهُ في بحر من الهموم والأمواج المتلاطمة، ومن هنا فإن المواطن يكون قد عرف نقطة الضعف الرئيسية، وركَّزَ عليها وتأكد أن بلاده مرغوبة جدا من قبل المغتربين، فالتَّرحيل هو عبء ثقيل ينوءُ تحت ثقله المغترب ولا طاقة له على تنفيذ هٰذا الأمر إنْ وُجِّهَ إليه!!، إنه بمثابة توجيه كلمة الطَّلاق للمرأة، لا تود سماع هٰذه الكلمة مطلقا، حتى لو كانت حياتها مع زوجها جحيماً لا يطاق!!، فيكفي أنه ثري!!، وما دام ثَرِيّاً، فالأمور الأخرى الحسِّية والمعنوية، هي أمور لا يُلْتَفَتُ إليها!!.

إذن استطيع ثانية أن أقول أن المغترب لم يستطع أن يحافظ على علاقات التوازن في التعامل كما ينبغي، أو كما يجب أن تكون عليه العلاقات الأنسانية!!، فالعامل بحاجة إلى العمل، وصاحب العمل هو أيضا بحاجة إلى العامل، وإذا صح الصَّحيح، فيجب أن تكون هٰذه المعادلة هي منطلق أساس التعامل بين الطرفين، ولكن لنسأل هنا سؤالا: هل تتحقق الديموقراطية بين كليهما انطلاقا من مستوى طلب حاجة كل منهما إلى الآخر؟!!.

واقع الأمر في بلاد الاغتراب لا يقول هكذا!! أما واقع الأمر في البلاد المتقدمة، كالأوروبية مثلا، فإنني أعتقد أن واقع الأمر يقول: نعم، حتى أن الأمر قد ينقلب في كثير من الأحيان، من

استبداد العامل على رَبِّ العمل في تلك البلاد الأوروبية!!، أما في واقعنا العربي والدول الأخرى التي هي على شاكلتنا، فإن الأستبدادية، تتحكم في التعامل من قبل رَبِّ العمل، وكأن هٰذه الأستبدادية هي استمرارية لاستبدادية الاقطاع، أو العصور الوسطى القديمة!!، وذلك حينما كانت تلك المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت متخلفة جدا، أما وأنَّ التقدم قد أصاب هٰذه المجتمعات الأوروبية، فإن العقل الإنساني فيها يرفض أن يكون استبداديا في أكثر مثل هٰذه الأمور حساسية، ألا وهو الحصول على لقمة الخبز!!، فحينما تحصل على قوت يومك أو مصروفك بعرق جبينك، ويكون هٰذا مجبولا بالاستبدادية المطلقة فإن هٰذا مما يمحو شخصية الإنسان ويجعلها مع الآيام تُفْرغ كل شحناتها المعنوية والنفسية، التي وضعها الله فيها، فالله سبحانه وتعالى قد شرَّفه وكرَّمه وطلب منه أن يعيش عزيزاً كريما، فيأتي إنسان آخرَ ويسلُبُه كل هٰذه الحقوق في طَرْفَةِ عَيْن، لماذا؟!، لأنه في حاجة ماسة إلى العمل! ولكن نَسِيَ صاحب العمل أنه هو أيضا في حاجة ماسة إلى العامل، ولولا العامل لما كان العمل، ولما حصل، وَلَمَا أُنْجِزَ ولما أُنْهِي!! ولما صار العمل إنجازا عظيما يدخل في ضمن الإنجازات التي تتباهى وتتفاخر بها تلك الشعوب!!، إنه إنجاز حضاري كما يدّعون في وسائلهم الإعلامية!، نعم!!، والمادة هي أساسه، نعم!! ولكن هل المادة كافية لتحقيق كل هٰذه الإنجازات بدون العمال والخبراء والمهنيين والمدرِّسين وغيرهم من فئات الأعمال الأخرى!!!، أظن أنَّ هٰذه

المواضيع قد تحتاج إلى دراسة وافية جدا، وبحاجة أيضا إلى أن تدرّس وتوضع فيها مناهج مدرسية أيضا، حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تتفهم أسس التعامل ومنهجه وعلاقاته الإنسانية الشاملة. إنّ ما أود قوله، هو أن علاقة المغترب بمواطني أهالي البلاد التي يقيم فيها هي علاقة معقّدة، ومتشابكة، فهي قد يشوبها الغموض وعدم الوضوح في أغلب الأحيان، وذلك لأن المغترب لا يستطيع أو قد لا يتمكن بشكل أصح من تفسير مواقفه بطريقة واضحة، حتى يستطيع الأهالي هناك على كافة مستوياتهم من تَفَهُّم مواقفه بالشكل الواضح المطلوب!!، وفي رأيي أن ذلك يرجع إلى عدة أمور منها: نقطة هامة رئيسية، وهي أن المواطن لا يريد بأي شكل من الأشكال أن يتفهم هٰذا الإنسان ويتفهم واقعه ومواقفه مهما كانت حصيلته العلمية أو وصل إليه مستواه العلمي!!. فهو في نظره غريب قد ترك بلاده وجاء إلى بلاد أخرى سعيا وراء المادة، وهٰذا السبب يجعل المواطن لا يُقْبِل إقبالا تاما على الإحاطة التامة بظروفه أو الإلمام الكافي بأصله أو نوع حسبه ونسبه، فهو في نظره «أجنبي» أو «خارجي» لا أكثر ولا أقل!! وقد يُلْصَقُ به هٰذا الاسم، منذ أن تَحُطَّ قدماه، أرض البلاد، التي جاء ليعمل فيها. زد على ذلك أن المواطن، لا يريد أن يشعر في حقيقة الأمر أن هٰذا «الأجنبي» هو أفضل منه، في المستوى العلمي أو العملي أو غيرها من الأمور الأخرى التي تقاس وَتُقَيَّمُ بها النّوعيات البشرية. فالمواطن لسان حاله ينطق دائما وأبداً، في السرّ والعلن أن بلاده أفضل من البلاد الأخرى، آخذاً في عين الاعتبار أن بلاده

أغنى وأوسع ثراءاً من باقي البلدان التي نزح منها هؤلاء الأجانب، ولهـذا فهم يتميَّزون عن تلك البلدان في تَوَفُّر أدوات الحضارة والثراء!!، فهم يمتلكون القصور الضخمة، زد على ذلك ما تحويه هٰذه القصور من رِيَشٍ وأثاث فخم، وأدوات عصرية حديثة!. كذلك سهولة الحصول على المال الذي يأتيه دون عناء أو مشقة!!، زد على ذلك فإن المواطن يشعر بنوع من الإحساس المتضخِّم يدخل في حَيِّز الشعور على أن مجتمعه هو أكثر نقاء وأشرف حَسَباً ونسبا من المجتمعات في باقي البلدان الأخرى، فهم غالبا ما يحفظون عن ظهر غيب أسماء أجدادهم حتى يصلوا إلى الجد المائة أو أكثر!!، وهٰذا مما يزيدهم يقيناً أنهم عَرَبٌ أُصلاء!!، بينما تجد الأجانب الآخرين لا يحفظون من أسمائهم حتى الجد الرابع، ولهذا فإنهم ما داموا لا يستطيعون إثبات شجرة عائلتهم التي توصل إلى سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام مثلاً، قد يكون من السهل التشكك في أصولهم من حيث الحسب والنسب!!، ولهٰذا فإن هٰذه الأسباب التي ذكرناها هي التي تزيد من تضخُّم المواطن!!، فالثروة والجاه والحسب والنسب هي الأصول الأساسية لِتَفَوُّقِ المواطن الممتاز على الشخص الأجنبي حسب اعتقادهم السائد العادي!!.

وانطلاقاً من هٰذه الأسس أو هٰذه المعايير فإن المؤهل العلمي يَسْقُطُ في حِجْرِ الأجنبي دون أن يساوي شيئا!!، ويبقى العلم هو عبارة عن ورقة كرتونية مُؤَطرة على الحائط مِثْلُها مثل أيَّةِ صورة

أخرى مُعَلَّقَةٍ بجانبها!!، والعكس هو الحاصل تماما في بلد هٰذا الأجنبي، فالأسس أو المعايير في بلده هي التي يدخل فيها المعيار العلمي، فهذا المعيار هو الذي: إمَّا أن يرفعه في بلده أو أن يَحُطَّ من شأنه!!، ويؤكد هٰذا المعيار الدِّين الإسلامي الذي يَحُضّ على طلب العلم، فليس خافياً على أحدٍ أن كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تَحُضُّ على طلب العلم، وأن القرآن الكريم قد وضع معيارا في تفضيل شخص على آخر، وذلك حينما يقول: **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** صدق الله العظيم.

ولسنا هنا بصدد مناقشة هٰذه الاعتقادات ولكنه من الثابت جدا أن الاعتقادات دائما ترجع إلى ثقافة الشعوب وإيمانها العميق بعاداتها وتقاليدها، والثقافات قد نراها مختلفة عند كل مجتمع، فكل مجتمع أو أمة تجد ثقافتها تتميَّزُ عن مجتمع آخر، أو أمة أخرى، ولسنا نريد أن نَزُجَّ بأنفسنا في هٰذه الأمور، فالمسألة التي نناقشها الآن ليس الغرض منها تفسير هٰذه المواقف ولا إيضاحها وذلك لأنها بطبيعتها واضحة وَجَلِيَّة لدى الجميع. ولكن ـ دَعْنا عزيزي القارىء ـ نتصور أن مجتمعاً يشكل فيه عدد الأجانب نسبة تراوح حوالي ٤٠٪ أَلَيْس هٰذا جديراً بالمناقشة والاهتمام!! وَأَلَيْسَ جديراً بأن تقوم عليه دراسات اجتماعية!!. وانني اعتقد أن الدراسات إذا ما تحققت ستكون ثرية وغنية بشتىّ أنواع المعارف والعلوم، خاصة وأن أكثر هٰذه الجنسيات التي تعيش معاً؛ تختلف عن بعضها في النُّطق والعادات والتقاليد والأديان أحيانا، وقد تجد

بعض هٰذه الجنسيات تشكـل غالبية عُظمى من حجم المجتمع الذي تعيش فيه؛ مما يترتب عليه طبع أثر من الآثار أو طبع بصمةٍ ذات تأثير قويّ في داخـل أو كيان المجتمع الأصلي؛ كَأَنْ يترك إحـدى عاداتـه أو تقـاليده أو إحدى لَهَجاته في داخل كيان هٰذا المجتمع الأصلي!!. وإنني اعتقد أن هٰذه الآثار ستبدو واضحة وَجَليَّةً في هٰذه المجتمعات في يوم من الأيام في السِّنين القادمة.
إن الذي أود قوله هنا هو أنني أريد أن أتساءَل أمام القارىء، لعلَّه يزداد مما نقول إقترابا وأكثر تفهما خاصة بالنسبة للذين لم يُجرِّبوا الاغتراب أو العيش في مجتمعات مختلطة. هٰذا الاستفهام الذي يقول: ما هو رد فعلِ المواطن أو موقفه أمام هٰذه الأعداد الكبيرة من الأجانب الذين يَحُطُّون على تراب بلاده؟!، ما هو حجم الأخطار التي يمكن أن يُحْـدثـوها بمجتمعهم إنْ هم غضُّوا جفونهم عن مراقبـة هٰذه الكتـل البشـرية الهـائلة المختلفـة في العـادات والتقاليد؟!؛ وما هو أيضا حجم الشكوك التي يمكن أن تدخل في عقلية المواطن تجاه هٰذا الأجنبي، الذي حَطَّ على أرض بلاده؟!.

إن عدم المعرفة الحقيقة للشخص القادم، يمكن أن يرسم حوله أنواعا من الشكوك والظنون، فهناك شكوك تحوم حول سلامة طَويَّته، وهٰذه الكتل البشرية المختلفة من الممكن ان تحوي في صفـوفهـا أنـواعـاً من الأشخـاص الغير عاديين، كالمحتـالين أو اللصـوص أو غيرهم، ومن الـطبيعي أن تعمـل الأجهزة الرسمية عندهم، على مراقبة هؤلاء، ومعرفة تصرفهم وسلوكهم معرفة دقيقة

وتـامـة. فالمسـألة إذن ليست هينة، وبكل هٰذه البساطة بالنِّسبة إليهم، فهم بطبيعتهم الاجتماعية مَيَّالون، أو هم يتوقون دائما وأبدا إلى الهدوء والسكينة، والاستقرار، ويعود ذلك، إلى ثرائهم الواسع والعريض، فالإنسان الثري بطبيعته، لا يود من أحد أن يعكر عليه حياتـه وأمنـه، وينغصهـا بالفـوضى والتّخريب. فالثراء يجب أن يصحبه الهدوء دائما!! أو العيش في داخل القصور، يتطلب أمْنا واسع النطاق، حتى لا يستطيع مجرم أو لص أن يقتحم الأسوار، ويجلب معه المخاوف والاضطراب والفزع!!.

إذن، جُلّ ما نستطيع أن نفهمه وأصبح أكثر تحديدا وايضاحاً لدينا الآن. فالأجنبي كما قلنا سابقا، هو شخص غير مرغوب فيه كل الرغبة، ولولا الحاجة القصوى للاستفادة من خدماته ومؤهلاته لما رَغِبـوا في استقـدامـه لبـلادهم مطلقـا، وهو بالإضافة إلى ذلك مشكوك في تحرُّكاته، وتصرُّفاته ومشكوك في سلوكه، كذلك فإن عاداته وتقاليده ولهجته، لا تنسجم مع العادات والتقاليد واللّهجات المحلية!! وهـــو مع هٰذا يحـل بين ظهـرانيهم، ويشـاركهم في حياتهم، وينافسهم إن شاء، في استهلاك مأكلهم أو استعمال نوع ملابسهم!! وكذلك الحصول على بعض الميِّـزات التي ينفقونها عادة، في المجالات الصحية والتعليمية، وهو بالإضافة إلى ذلك كثير الحركة والزيارات وَمُحِبّ للتجُّمعات، خاصة لأبناء جنسيته، وهٰذه التجمعات بطبيعة الحال، لا ترضي أو تريح أهالي البلاد أو أجهزتهم الرسمية، لأن في اعتقادهم أنَّ كثرة هٰذه التجمعات من

الممكن أن تحمل بعض الأحيان بعض المخاطر الأمنية على بلادهم؟ فإذن الشكوك وكثرة الظُّنون ستظل تحوم دائما وأبدا حول هؤلاء الأجانب!! زد على ذلك فإن الخطر الحقيقي قد يأتي من وراء الأفكار والاعتقادات السياسية والدينية، التي من الممكن أن يصدِّرها هؤلاء الأجانب إلى بلادهم!! إذن كل هٰذه الأمور والمسائل جديرة بالمراقبة الدقيقة والشاملة، كي لا تتأثر المجتمعات الأصلية بأفكار جديدة، يعتقدون أنها تشكل خطورة حقيقية تؤثر على مُجْريات الأمور السياسية والاجتماعية في بلادهم!! فالأجنبي إذن يجب عليه أن يُقلِّل من تَحرُّكاته ونشاطاته وكذلك يجب عليه أن يطوي أفكاره ومعتقداته في رأسه، ويجب أن لا يكثر من مغالطاته ومناقشاته في أمور علمية وغير علمية، في أماكن العمل أو في الشوارع أو المقاهي أو في أي منتدىً عام، وهو يَعِي هٰذه الأمور جيدا، ويعلم أيضا أنه مُراقب مراقبة تامة ودقيقة!! فعليه إذا شاء أن يذهب إلى الشارع أو إلى السوق في أدب جم، فالغريب يجب أن يكون أديبا كما يقولون، وإلا فإن أي تصرف أو سلوك شائن يمكن أن تكون نتيجته هي تأشيرة خروج بلا عودة إلى بلادهم، يُخْتم على جواز سفره، وهٰذا عقاب أو جزاء لا يمكن للأجنبي أن يتحمله مطلقا كما سبق وأن أسلفنا، فهذا الإجراء هو أشبه ما يكون عنده بالموت الصغير الذي ينقله من عالم الثراء إلى عالم الفقر! فهذا الموت الصغير بالنسبة للمغترب هو ذو أثر بالغ على نفسه، لأنه لا يموت ميتته الأبدية، بل إنه يظل حياً ويبعث إلى بلاده التي خرج منها فاراً هارباً من حشود الفقر والجوع والحرمان

التي ما زال يتذكرها أو هي على الأقل عامرة في ام رأسه، لا يكاد ينساها!! فأنواع الجوع والفقر والحرمان، التي تُخَيِّم على عقله تظل تنسج عليه من خيوطها الواهية، ما يجعله يتوهمها دائما، وكأنها ستعود إليه من جديد، إن هو رجع إلى بلاده!! فهي تتربّص به دائماً وتلاحقه فهو ليس في منأىً عنها، فهي شديدةُ البحث عنه، وَتَتَعقَّبُه لَيْلَ نَهارا! ولهذا فإن الغربة هي الملاذ الذي يحميه من شرِّ هٰذا الوحش الكاسر، الذي يظل يتوهمه طيلة سنوات اغترابه!!.

وإنني اعتقد أن كثيرا من المغتربين يوقنون ويؤمنون بهذه المسألة، على الرغم من تَدَيُّن الكثيرين منهم، وعلى الرغم من ذلك فإن الإيمان لم يكن له أثره الملموس في إيقاظ هٰذه النفوس الخاوية، التي سيطر عليها عنصر «الخوف» على عنصر «الإيمان»!! وظلت معلقة من رقبتها، بهذا الخوف المستمر، الذي أدمى نفوس أصحابها، وجعلها تعيش في درجة عالية من التَّذبذب وعدم الثبات على درجة الإيمان!! وإذا ما أردنا أن نَلجَ إلى هٰذا الموضوع بشكل أعمق، وأن نتطرق إلى تفاصيل علاقة المغترب بأهالي البلاد، الذين يقطن بينهم، فإن العزلة التي يعيشها المغترب، طوال سنوات الاغتراب تبدو ظاهرة عليه، وحافرة أخاديدها بشكل ملحوظ على صفحة وجهه، فهو يحاول أن يستبدل عُزلته مع المواطنين بطريقة أخرى يحاول فيها قَدْر استطاعته أن يُوَحِّد علاقته بأبناء جاليته أو أبناء أية جالية أخرى، قريبة الشَّبه من عاداته أو سلوكه!! ولكن يظهر لنا من خلال هٰذا الأسلوب التعويضيِّ في العلاقة، سؤال ملحٌّ وهو: هل يستطيع هٰذا المغترب من خلال هٰذا

التعامل بين أفراد جاليته أو أية جالية أخرى يتعامل معها. هل يستطيع أن يشعر بملء الفراغ؟ أو هل يستطيع أن يحس بالسّعادة الغامرة إذا هو حاول هٰذا التعويض؟!.

والجواب على ذلك يحتاج منا إلى جهد كبير، كي نستطيع من خلاله أن نناقش علاقة المغترب بالمغتربين الآخرين، ولكي نستطيع استكمال كل الأجواء والظرّوف التي تحيط به، فإننا إن شاء الله سنتعرض لهذا الموضوع في الباب المقبل، ولكن مهما كان الأمر، سنحاول في نفس الوقت الأجابة على هٰذا السّؤال بشكل موجز، لأن هٰذا الموضوع الذي نحن بصدده الآن يبحث في علاقة المغترب بالمواطنين.

فالمغترب أولا وأخيرا يشعر بالعزلة والخوف كما قلنا في بلاد الاغتراب! فمثلما يتشكك أهالي البلاد في تصرّفاته أو أي نوع من تحرّكاته سواء المريبة منها وغير المريبة ففي شعوره هو الآخر لا يختلف عن نفس هٰذا الشعور!! فهو قد يجنح إلى العزلة الدائمة، وهو لا يرغب كل الرغبة في الاختلاط، حتى مع جيرانه! وإذا ما أجبرته الظروف على الاختلاط أو الاجتماع بهم بعض الوقت، فإنه لا يستطيع أن يبسط لهم نفسه كما هي عادته في بلاده!! فقد تجده مثلا منكمشاً ومنغلقا على نفسه، في أي اجتماع كان!! سواء كان هٰذا الاجتماع في دعوة لِمَأدبة طعام، أو في أي اجتماع آخر، ففي هٰذه الأماكن التي تستدعيه الظروف كي يجتمع بأي فرد أو جماعة من أهالي البلاد، فإنه يكون حَذِراً في إبداء أي تصرّف فعلي أو

لفظيٍّ حَوْل أيٍّ من المواضيع التي تتصل في خط تَماسٍّ مباشر أو غير مباشر بالأمور من ذوات النوعية الحساسة، كالأمور السياسية أو الدينية، أو أية أمور أخرى ذوات صفات حساسة، سواء كانت تمس الفرد المواطن، أو تمس عاداته أو تقاليده أو انتقادٍ لبعض تصرفاته الأخرى، حتى ولو كان في إبداء هٰذا الرأي، أو لطرح هٰذا الانتقاد صفات إيجابية، تحمل في خلالها بعض الفوائد أو الإصلاحات الاجتماعية!! أو فيها نفع للمصلحة العامة!! فالذي يخشى منه المغترب، هو أن يقع في بعض المحذورات، التي تتنافى مع العادات أو التقاليد المتعارف عليها!! وفي هٰذه الحالة فإنه سَيُتَّهَمُ بتصدير عادات جديدة مثيرة للفتنة، ويصبح ضمير حُسْن النيَّة الذي أَنْطَقَهُ، أو الذي انزلق فيه لسانه مثيرا للسُّخط وملزما له بالعقاب!!.

فإذن الصراحة في إبداء الرأي أو أن كثرة اللفظ أو المناقشات، ربما تسوق صاحبها إلى طريق لا تحمد عقباها!! وهٰذه المسألة هي ذات أهمية كبرى لدى المغترب، فعليه أن يبتعد عن كثرة الكلام، أو كثرة النقاش أو الجدال في مختلف أنواع الأمور، فالمناقشة في أمور العلم، احياناً ربما تتناقض مع أمور الدِّين، وإذا ما استرسلت في شرح نظرية من نظريات العلم، التي تتعلق بالدِّين مثلا، فربما يُوجه إليك اتهاما أنك قد تعرضت للدِّين، أو أَسأْتَ إليه، ولن تُمْحى عنك التُّهمة، مهما كانت طَوِيَّتُكَ سليمة!! وأنك غير قاصد بها!!.

إن الــذي أريد أن أُوصله للقــارىء الكـريم، هو أنَّ على المغترب، في بلاد الاغتراب أن يحترزَ عن إبداء أي قول أو فعل فيه ولـو مجـال بسيط للرِّيبة أو للشك!! فَدُخوله في أي نوع من المُلابسات قد يعرِّضه للمراقبة. ما عليه في هٰذه الحالات، إلا أن يلجأ إلى الاعتزال عن المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يكون كثير الاختلاط إلا بمن يختارهم من أبناء جاليته، وهٰذا هو سبيله الوحيد لِتَخْفيف عناء عزلته وآلامه، ولكن مهما كانت الأمور، ومهما كان هٰذا التعويض الذي يبذل جهده فيه، فإنه غير كافٍ أبداً كي يخفف من آلام الغـربـة وعنائها ومشقاتها الكثيرة المتواصلة، وهو قد لا يستـطيع أن ينصهـر في بَوْتَقة هٰذا المجتمع الذي عاش فيه مدة طويلة. فكثيراً ممن تجدهم قد وُلِدُوا وأنهوا مراحلهم التَّعليمية في هٰذه المجتمعـات، إلا أن صفـة الاختلاط تكاد تكون مُنعدمة، فيظل المغتـرب منطوياً على نفسه، لأنه حتى ولو أراد أن يمتزج بأهالي البلاد، فإنه سيرى الانتقاد والتَّهكم اللاَّذع يلاحقه من قِبَلِ أبناء جاليته والجاليات الأخرى، ولهذا فهو دائما حريص على أن يحتفظ بماء وجهه، علاوة على ذلك فإن أهالي البلاد الذين يعيش في مجتمعهم، غير مستعـدين لتلقِّيه فرداً منهم، وغير مستعـدين لمنحـه الثقـة الكاملة!! فهو كما أسلفنا بالنسبة إليهم أجنبي، لا يستطيع أن يمحو هٰذا المُسَمَّى عن نفسه، حتى ولو سَلَخَ جلده، وَدَهَنَـهُ بِلون أهـالي البلاد الذين يَحِلُ بين ظهرانيهم، لأن حقيقة الأمر تقول: أن اقتناع كل طرف بالطرف الآخر حلقة مفقوده، فلا هٰذا يُقِرُّ بعادات وتقاليد وأفكار ولباس ومأكول ومزاج هٰذا!! ولا هٰذا

الطرف الآخر كذلك، يعترف بهذه الأمور التي ذكرناها للطرف الآخر!! إذن فالمسألة تتعلق بعدم قناعة!! وحينما تكون القناعة مفقودة، فإن الاختلاط يبقى معدوما، ويبقى المغترب، غريباً يعيش مع هموم اغترابه، يأكل معه ويشرب معه! ويمشي معه! وينام معه! فالمغترب والغربة صَديقان متلازمان لا يستطيعان أن يفترقا ولو دقيقة واحدة، وإلا فإن المغترب سيعتبر مواطناً وليس مغتربا، إن هو قد استطاع أن يتخلى عن حالات وأمور استغرابه!!.

إذن فعلاقة المغترب بأهالي البلاد أو بمواطني دول الاغتراب، هي علاقة مهزوزة ومضطربة، غير قائمة على ثقة راسخة بين الطرفين، زد على ذلك فإنها علاقة مبنية في واد سحيق من الشكوك والظنون المختلفة، فالمغترب لا يمكن أن يثق بكفيله، لأنه يعتقد أنه لن يتأخر عن ابتزازه إن اضطربت الأمور بينهما، في أي يوم من الأيام!! وصاحب العمل ينظر هو الآخر إلى مكفوله، على أنه يجب أن يكون كالآله تُدِرُّ عليه الأرباح المادية في آخر كل شهرا!.

إذن فالرباط الحاصل بينهما يعتمد على مدى الفائدة المادية التي يجنيها كل طرف من الآخر، فالارتباط هو ارتباط مادي فقط وحينما يزول هٰذا الارتباط فإنك سرعان ما ترى هٰذه العلاقة قد أصبحت فاشلة ومفككة، ثم منعدمة تماما، إذن فالارتباط الخارج عن حدود المادة، أوما نسميه الارتباط الروحي أو الأخوي معدوم، والدليل على ذلك هو أنك قد تجد علاقة حميمة بين عامل

وصاحب عمل أو بين كفيل ومكفول بمعنى أصح، ثم لا تلبث وأن تسمع على حين غِرَّة أنَّ الكفيل قد قام بترحيل مكفوله، على أقل الأسباب تفاهة!! وهٰذا يدلنا بالتالي على انعدام التَّوازن في العلاقة لأن نظرة المواطن الفَوْقية تظل هي التي تتحكَّم في مَصير هٰذه العلاقة!! وما ذلك الصفاء الذي أُشرنا إليه قبل قليل، ما هو إلا رغوة تخفي تحتها الكدر والطين!!.

هٰذه إذن هي علاقة المغترب بالمواطن، تناولنا شرحها بالتفصيل في صفحاتنا الماضية، ولكن إذا ما أردنا أن نتوسَّع في هٰذا الموضوع بالتفصيل فإنه يجب علينا أن لا نغفل جانبا مهما من الجوانب التي يتعامل معها المغترب. هٰذا الجانب قد يدخل في صميم حياته، في بلاد الغربة بطريق مباشر، وله تأثير قوي على قواعد تصرفه وسلوكه، هٰذا الجانب هو الذي يتعرض لعلاقته مع فئات المغتربين من أمثاله، على مستوى مختلف جنسياتهم، والآن دعنا - عزيزي القارىء - نَكْشف الصفحات التالية، لنرى كيفية هٰذه العلاقة!!.

علاقة المغترب بالمغتربين الآخرين

في الموضوع السابق كنا قد تكلّمنا عن علاقة المغترب بالأهالي «المواطنين»، أما الآن فإننا سنتناول هٰذا الموضوع الذي يعتبر من المواضيع الأكثر حساسية، لأنه يبحث في علاقة المغترب مع المغترب الآخر مثله، ففي هٰذا تكون قيود المواطن عليه قد أرخت حبالها، وها هو الآن نجده مطلق الحرية يتعامل مع شبيهه في الغربة، على حسب طبيعته ومزاجه، ولكن لا يعني هٰذا أنه قد يخرج في تعامله عن حدود القوانين والأعراف المعمول بها، ولكن الذي أعنيه، هو أنه يتعامل الآن مع شخصية لا تختلف عنه كل الاختلاف من حيث القاعدة أو الأرضية التي يتحرك عليها الطرفان، إلّا بقدر ضئيل جدّاً، قابل للتغيير، على حسب هبّات الرياح السياسية، التي تهب بين الحين والآخر، على بلده والبلد الذي يقيم فيه. فقلنا قبل قليل أن علاقة المغترب بالمواطن هي علاقة غير مترابطة اجتماعيا، والغريب بطبيعة حاله مَيّال إلى العزلة، لأنه لا توجد في هٰذا المجتمع الغريب، مقوّمات الانسجام الأساسية! ولكن ربّما يبرز لنا هنا سؤال هام، وهو أن يقول لنا قائل مثلاً، إنَّ قوة شخصية المواطن ونظرتـه الفوْقية للمغترب قد تَتَمشّى مع هٰذا القوْل: أمّا حينما نريد أن نُطبِّقَ هٰذا القول على المغترب مثله، فإنـه يجب علينـا أن نُلغي هذا الادّعـاء، نظراً لأنَّ بعض

مقـوِّمـات هٰذا الانسجـام على الأقـل متـوفِّـرة! وإن بعض هٰذه الجنسيَّات قد تمتلك المقـوِّمـات الأسـاسية المشتركة من ناحية اشتـراكهـا في الدِّين واللُّغة والتَّاريخ أيضا، فلماذا لا يكون هٰذا الاندماج أو الانسجام في العلاقة قائما دون تَعثُّر أو خَلَل؟!.

حينما نريد الاجابة على استفسار مثل هٰذا، فإنه يتراءى لنا منـذ الوهلة الأولى، أنه يجب علينا أن نوافق على هٰذا الادِّعاء، ولكن حينما نغوص في عمق هٰذا السُّؤال، فإنه يجب علينا أيضا بالمقابل، أن نَتروَّى حتى لا نَغْرَقَ في خِضَمِّ العاطفة التي تعصف بنا، كلما طُرِحَتْ علينا أسئلة مشابهة! أَذْكر أننا كنا نتحزَّب ونعاضد مثل هٰذه الأقوال وكنا نتعصَّب لها حينما كان المدرِّسون يُلْقون علينا محاضرات بهذا الشأن، بل إننى ما زلت أذكر أنَّنا كنَّا نُفاخر أَشَدَّ مُفاخرة، حينما كان مُدَرِّس الجغرافيا، يَسْرُدُ علينا موارد وعائدات الأموال التي تعود على البلدان العربية الأخرى، وقد كان أُولئك المدرِّسون يحاولون جاهدين، أن يقنعونا أنَّ هٰذه العائدات الماليَّة الضخمـة كالنفط مثـلاً هي مُلْك لنـا جميعـا!!. وسنقوم باستلام حصصنـا من هٰذه الأمـوال، حينما يشتدُّ ساعد هٰذا المال وَيَقْوى لأنهـا كانت حينـذاك، في مُسْتَهَلِّ صعودها الماديّ!! ولكنَّا بدأنا نشعـر بِهُـراءِ وتخريفِ مُدَرِّسنا هٰذا، حينما عِشْنا هٰذا القوْل، عن حقيقة وتجربة على أرض الواقع!!.

لقد كنَّا نعتقد أنَّ جُلَّ الشُّعوب في العالم العربي تعيش بمثل العادات والتَّقاليد، ولها نفس الميول والاتجاهات المتوارثة ولكن

حينما تَفَحَّصنا ذلك عن قرب وَكَثَبْ، وَجَدْنا أنَّ هناك اختلافا ظاهراً خاصَّـة من حيث طريقة النُّطق في اللَّهجات، وكذلك من حيث العادات والتَّقاليد والثَّقافة أيضا، فالبُلْدان التي تشكِّل لنفسها بيئة جغـرافية واحـدة. ربما تجد أن هناك انسجاماً موحَّداً في ميولها وَرَغَباتها، وكذلك من حيث العادات والتَّقاليد، ولكن لو جئت لفرد من هٰذه البلدان، وجئت به إلى بلاد أُخرى تختلف عنه من حيث البيئـة والمنـاخ الجغـرافي، فإننـا في حقيقة الأمر نجد أن هناك اختلافا في موارثاته، عن موارثات تلك البلدان!! . فالمسألة التي نتحدث عنها، هي مسألة حسَّاسة ودقيقة، ولكن يجب علينا، أن نتصارح بشأنها حتى نستطيع أن نتوصل إلى حقيقة ما، حول هٰذا الموضوع، وقد كنَّا نخشى من مَغَبَّة الوقوع في سوء الفهم الذي من الممكن أن نقـع فيه، فالعادات والتَّقاليد والثَّقافات، تكاد تكون مختلفــة في بعض جوانبهـا الأصلية. وَمَنْ لم يصـدِّق فَعَلَيْهِ أن يغترب، وَيَرى بِأُمِّ عينيه، كيف أن المغتربين من مُختلف جنسيَّاتهم قد لا يتجانسون فيما بينهم تجانسا كاملاً، حتى أن هٰذا التَّجانس تجده ناقصاً عند الدول التي تجمعها، بيئة جغرافية واحدة، فلا بد وأن تجـد أن هنـاك اختـلافا في اللَّهجة، أو العادات أو التَّقاليد تختلف من جنسية لأخـرى، مما يترتب عليه، عدم اندماج هٰذه الجنسيات، في علاقات اجتماعية متميِّزة فيما بينها!! .

وربَّمـا يسأل سائل، لماذا هٰذا الاختلاف وقد توجد هناك، مقوِّمات وأصول مشتركة، تجتمع مع بعض البلدان؟! وإنني أُجيب القـارىء الكريم، بأنَّ هناك عدة أسباب، تجمع هٰذا الخلاف،

منهـا سبب رئيسي ، ألا وهـو الثَّقـافـة ، هٰذه الثقافة التي من الممكن أن تعمـل على تَميُّز طَبَقي ، حتى في المجتمـع الـواحـد ، فإذا اختلفت الثَّقافة بين أبناء المجتمع الواحد، فإنك ولا شك ، ستجد أن الاختلاف أو عدم التَّجانس قائمٌ ولا مَحَالة ، في هٰذا المجتمع ، والثَّقـافـة التي أَتَحـدَّث عنهـا، ليست تلك الثقافة الموجودة في الكُتُب، فهذه الثَّقافة، مُوَحَّدة في سائر الكتب وهي ربَّما لم تتوفَّر لدى الأُميِّن، أو أَنْصاف المُتَعلمين في المجتمع الواحد، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نحكم على مجتمع كهذا، بأنه مُخْتلف الثَّقافة عن الآخر، ولكن الثَّقافة التي أَقْصدها هي ثقافة الميراث، هٰذا الميراث الـذي نتنـاقله في المجتمع الواحد عن طريق العادات والتَّقـاليد والفَهْم والإدراك، لِجَميع الأمـور المُحيطة بنـا، وهٰذه الأمـور، المحيطة بنـا تتعلق بالسِّياسـة والاتِّجـاهـات والمُيول والـرَّغَبات والتَّوجَهُّات الأخرى، التي تَهُمُّنا، وعلى اتصال مباشر بنـا، لهـا تأثير مبـاشـر على ماضينا وحاضرنا وَتَوَجُّهِ مُستقبلنا في المجتمع الواحد، فهذه الأمور، التي ذكرناها، لو جِئْنا نتمعَّنها، وَنُلْقي عليها بعض الضَّوء، لَوَجدناها تختلف من مجتمع إلى آخَر وإني لا أَقول هٰذا الكلام جُزافا، وإنما عشتُهُ عن حقيقة وتجربة، فإذا أردَّتَ أن تَخْتلط مع أيٍّ فرد من جنسية أخرى، فإنك تجد أن لديه اهتمامات تختلف عن اهتماماتك وميولك. فأنا كفرد فلسطيني مثلاً، تُؤَرِّقُني قضية بلادي، ولكن حينما تجلس مع فرد من جنسية أُخرى مثلاً، فإنك تجد أن قضية أخرى، كَلُعبة كرة القدم مثلاً، هي التي تستولي على كل احساساته ومشاعره، فتجد مثلاً عَدَداً

كبيراً مِمَّن يُمْضون وقتاً طويلاً في التَّحدث عن الكرة في مجالسهم وأمـاكن اجتمـاعاتهم، حتى إنك تجدهم يأخذون من الصُّحف صفحـاتهـا الـرياضية فقط، ولا يلتفتـون إلى باقي الصحيفـة أو المَجلَّة، وقـد لَفَتَ نَظَري أنَّ عدداً كبيراً منهم، تجدُهُ ينظر إلى الصَّحيفـة وهـو يقـرأ صفحاتها الرياضية باهتمام وَتَمَعُّنٍ بالغِينَ، وتجدُهُ وقد تَمَلَّكتْهُ بعض علامات الدَّهشة والاستغراب أو علامات الفرحِ، بادية على وجهه وهو يقرأ الخبر، أو الحَدَث الرياضيّ!! ولستُ هنا أضَعُ هٰذا المقياس على أفراد فقط، وإنَّما وجدت أنَّ هٰذه الاهتمامات تَطغى عند شعب بشكل لَمْ تَطْغَ بِمثله عند آخر. هٰذه هي إحدى النواحي البسيطة التي اردتُ أن اذكرَها هنا، هٰذا عدا عن الاختـلافـات الأخـرى في العـادات والتقـاليد والميول والرَّغبات والتوَّجهات الأخرى الشديدة الصِّلة، التي غالباً ما ترسم مداراً لشعب يختلف عن المـدار نفسه عند الشعب الآخر، مما يؤدِّي بالتَّـالي إلى كثـرة التنـاقضـات في هٰذه العادات والتقاليد المتوارَثَة والتي بالتَّالي ترسُمَ هٰذه المنعطفات والالتواءات الثَّقافية، التي لا يُمْكن أن تَلْتقي، إلاَّ عند بعض الأمور البسيطة، والتي غالباً ما تجدها تلتقي بشكل عشوائي، وليس مُركَّزاً، إلى الحدِّ الذي تنطبق فيه كل الانطباق!! إنني لا أريد أن أرْسُمَ هٰذه الفجوة التي ربما يتوهمها البعض هُوَّة واسعة، لا يمكن أن تتصل الطرق التي تَّتصل بهذه الهُوَّة، التي ذكرناها!! ولكنني أُريد أنْ أُطَمْئِن القارىء الكريم، أَنَّ هٰذه الهُوَّات جميعها يمكن لها أن تُردم وَتُسَوَّى إنْ نَحْنُ عالجنا هٰذه المشكلات بالصراحة، والفهم والادراك، واستطعنا أن

نتفاهم جميعاً، بأن هٰذه الاختلافات، ليس الغرض منها، هو تَمَيُّزُ كلُّ شعب عن الآخر، ولا أنَّ عاداتَ وتقاليدَ هٰذا الشعب، هي افضل من عادات وتقاليد وميول الشعب الآخر، ولكن يجب أن نفهم أن هٰذه الوحدات الثقافية، يمكن أن تَصُبَّ أخيرا في مجرىً واحد، كي تُشكِّل جميعا ميراثا ثقافيا واحدا لدى الشُّعوب العربية بأكملها، ولن يتأتّى ويتحقق لنا هٰذا الأمر، بهذه البساطة، لأنَّ الموضوع ينبع من أساس تَنَوُّع الثَّقافات، هٰذه الثَّقافات التي شَكَّلَتْ تَعصُّبا وَتَفاضُلاً وتمايزاً بَيْنَ أبناءِ هٰذه الشعوب، وإذا ما تَمَعَّنَّا في هٰذا الأمر، فإننا نجد أن لدى شعوبنا من الأفراد الذين لديهم تَوَجُّهات تساعد كثيرا على اتساع تلك النظرة التعصُّبية، والتي بالتَّالي تعمل على اتساع هٰذه الهُوَّة كما ذكرنا!! وهناك عامل أكثر أهمية في اتساع هٰذه الهوة، ألا وهو عاملُ السياسة، فالسياسة هي الميزان الشَّديد الحساسية الذي من الممكن أن يعمل على زيادة التَّعصب، أو التَّخفيف منه، أو حتى تلاشيه، فالسّياسة ويتبعها الإعلام، هو الذي يُقَوِّي أو يضعفُ من تأثير الثقافات بين هٰذه الأمم، فالسياسة على حسب درجة حرارتها يمكن أن تزيد أو تُنقص من ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة، فهي الماء البارد الذي يُسْكَبُ على تأثير الثقافات الفاعلة التي ذكرناها، فيطفئُه أو يُشْعلُه، تماماً مثلما تجد أنَّ هناك شخصين بينهما سوء تفاهم، فأي تصرُّف مُخِلٍّ من أحدهما يمكن أن يُفَجِّر الوضع فيما بينهما، وأيُّ تصرُّف إيجابي من أحدهما تجاه الآخر تجده يُرَطِّبُ الجوّ، وَيُخَفف من حِدَّةِ التَّوتر فيما بينهما!! وأن هٰذا الذي أقوله أو أدَّعيه قد لَمَسْتُهُ

بنفسي، ووجدت أنَّ له تأثير نِسْبي كبير على منهج التَّعامل فيما بين الأفـراد، على مستـوى مختلف الجنسيات، خاصـة في بلاد الاغتراب الماديّ.

فَعامل الثقافة هٰذا، له دور رئيسي كبير على مستوى التَّعامل بين مختلف هٰذه الجنسيات عدا عن أنه له نفس التأثير على العلاقة بين المغتـرب والمـواطن أيضـا، لكننـا سبق وأن قلنـا أن عامل السياسة؛ هٰذا العامل الذي نقصده هو الذي يقيس درجة العلاقات بين دول هٰذه الجنسيات!!، فَأَحياناً نجد أن دولة ما قد زادت من مستـوى علاقـاتها ودفعتها إلى الأمام مع دولة أخرى، فإن الذي نلمســه هنـا أن أبنـاء هاتين الـدولتين الـذين يعيشـون في بلاد الاغتـراب، سرعـان ما يتـوجهون بمشاعرهـم نحو التقارب ونحو التوحُّد، ولكن هٰذا التوحُّد في العلاقات وفي المشاعر أيضا سَرَعان ما يتـلاشى بمجرد هبوط العلاقة بين تلك البلدين. فإذن النقطة التي نبحث هنا ونحاول العثور عليها في هٰذا الاستعراض، هو أن هؤلاء المغتـربين على مختلف جنسياتهم هم يحاولون دائما أن يداووا عُزْلتهم هٰذه، ويمـلأون الفـراغ الحاصل منها عن طريق تكوين أية علاقات اجتماعية تجعلهم يُحِسُّون أنَّ لهم وشائج أو صِلاتٍ وُدِّية تَجْمعهم بغيرهم، وأنهم في بلاد الغـربـة «ليسـوا مقطوعين من شجرة» كما يقول المثل، وإنني قد رأيت أنَّ كثيراً من أبناء هٰذه الجاليات تحاول كل جالية أو أبناء جنسية منها أن تقيم روابط اجتمـاعية فيمـا بينهـا، ولكنْ تَبْقى هنـا اختلافات الثقافة

والمستويات العلمية والاختلاف في وُجُهات النَّظر الفكرية والسياسية والمعتقدات الدينية، فهذه كلها تكاد تُشَكل حَجَرَ عَثْرة في تكوين هٰذه الرَّوابط بشكل تلاحميٍّ كبير، مما يؤدي بالتَّالي إلى فَشَلِ هٰذه العلاقات، وحينها فإن كل مجموعة متقاربة في الأمور التي ذكرناها تُحاول أن تبني علاقات حميمة فيما بينها، ولكنَّ المجموعات الكبيرة غالباً ما تفقد من أفرادها. هؤلاء الأفراد الذين ينفصلون عن مجموعاتهم حينما تستولي الحساسية المفرطة على البعض منهم في أثناء بعض المناقشات أو الاختلاف في بعض وجهات النَّظر، أو حصول بعض المشادات في لَعِب الورق، أو أن بعضهم يوجه لزميله انتقادا حادّاً، يصاحب هٰذا الانتقاد بعض الألفاظ المُزْرية التي تُشَتِّتُ بين هؤلاء الأفراد، ممَّا يجعلهم يلجأون إلى مجموعة غير مجموعتهم. وهكذا فإننا نجد عدم ثبات هٰذه العلاقات أو الرَّوابط، مما يجعل المغترب يعيش في حالة نفسية مضطربة قلقة غير مبنيَّة على الاستقرار والهدوء النفسي.

وإننا حينما نقول هٰذا فإنه من الواجب علينا أن لا نستغربه خاصَّة إذا نحن قد أضفنا إلى تلك الأمور التي تبعث إلى التَّباين والاختلافات نقطة أخرى هامة جدّاً تزيد من هٰذه الخلافات وَحِدَّتها، هٰذه النُّقطة هي: عدم معرفة كل مغترب بالآخر، حتى من أبناء الجالية أو الجنسية الواحدة، فهؤلاء قد وَفَدَ كُلٌّ واحد منهم إلى بلاد الاغتراب بشكل كادَ أن يكون على شاكلة مؤسسة اصطناعية، فَكُلٌّ واحد منهم قد فُرِضَ على زميله سواء في العمل أو خارج العمل. وما دام الأمر هكذا، فإن على كل فرد أن يحاول

إيهـام زمـلائـه أنـه.في بلاده يتفـرَّعُ من عائلة مشهـورة بالحسب والنَّسب، وأنـه من ذوي الجـاه وأصحاب الغِنى والثَّراء، وأن له أقـربـاءَ وأُخـوة: هٰذا مديرٌ في إدارة كذا، والآخـر له رتبـة رفيعة المستـوى، أو درجـة راقية وهكـذا، ومنهم أيضـا من يأخـذ في استعراض ماضيه أمام زملائه بدرجة أنه يوهمهم أنه كاد أن يستلم منصب وزير في بلاده!!. لكنـه رَفَضَ هٰذا المنصب!!، وهكذا تكثـر الادِّعـاءات حول هٰذه المواضيع التي لا يؤمن بها كل من يسمعهـا ولا يصـدِّقها. فهذه كلها نوع من الاستعراض الكاذب الـذي لا يعتقـد به أحـد، ولسـانُ كل واحد يقول لصاحب هٰذا الادِّعـاء: لو كنت فعـلاً حَسَبَ ما تدَّعي وَتَهْـذر، لَمَا أَلْقَتْ بك المقادير إلى داخل هٰذه الصحارى المُلهبة!!.

وهناك نقطة أخرى أريد أن أوضحها حول هٰذا الموضوع، وهو أنك تجد كثيرا من هؤلاء المغتربين يكادون يعيشون في مستويات ومنـاخات متشابهة، سواء من حيث الحصول على المادة أو من حيث مواجهة المشاكل التي تعترضهم، وهٰذا لا يعني أن آخرين منهم لا يملك ثراء فاحشا، ولكن الحقيقة هي العكس، فالفئة التي أتحدث عنها هي فئة الموظفين وأصحاب ذوي الدخل المحدود من العمال والمستويات الأخرى المتشابهة. أمَّا أن نَدَّعي أن هناك فئاتا لا تمتلك ثراء فاحشا، فهذا نوع من الهراء، فقد نجد في بلاد الاغتراب مِمَّن يحصل على مردود ماديٍّ كبير جدا، خاصة أولئك الـذين يمارســون الأعمال الحرَّة وأعمال المقاولات والأعمال التجارية، فهؤلاء أثرياء جداً ولكنك لا تجد أن لديهم تميُّزا طبقيا

يختلف عن الآخرين من الفئات الأخرى التي هي دونهم في الثَّراء المادي، وذلك يرجع إلى سبب رئيسي استطيع قوله: وهو أن هؤلاء الأثرياء هم في الدرجة الأولى، قد جاءوا إلى بلاد الاغتراب وهم عبارة عن أفراد عاديين ومعظمهم قد ذاق المرارة والعذاب والمشاكل أيضا، حتى كاد أن يكوِّن لنفسه هٰذا الثراء الماديّ، ولهذا فهو بالتالي لا يستطيع أن يترفَّع على أبناء مجموعته أو أبناء جاليته، الذين هم دونه في الثَّراء، لأنه سَبَقَ وأنْ كان فَرداً واحداً منهم يواجه نفس المشاكل التي يواجهونها، والآن وبعد أنْ مَنَّ الله عليه بهذا الثَّراء، فإنه لا يستطيع أن ينقطع عن زملائه الذين هم دونه، لأنه لا يستطيع أن ينتمي إلى طبقة غنية أخرى لينجذب إليها، كما هو حاصل في بلاده!!، فهو في بلاده حينما يصبح غنيا، فإنه يستطيع أن يهجر عالَمَهُ الأصلي وَحَيَّهُ الشَّعبي الذي كان يقطنه، ويسارع فورا للانتقال إلى تلك الأحياء التي هي أكثر رُقِيّاً وتقدُّما من حَيِّه الأصلي!!، وفي هٰذه الحالة فإنه سَرَعان ما تستولى على عقله وذهنه الأُبَّهة والخيلاء، فَيَعْمد فوراً إلى تبديل سريع في نوع أَلْبسته ولوْن سيَّارته، ويتنكَّر أوَّل ما يتنكر إلى زُمرة أصدقائه المُخلصين له، وأقرباته وذويه الذين احتضنوه بالرِّعاية والحنان حينما كان يعيش بينهم مُعْدَما فقيراً!!، وقد يصل الأمر بأحدهم إلى أن يتنكر إلى عائلته أو حتى أَبويه!!، وقد يبدأ في طعن سلوكهم وإبْداء التزمُّت الشَّديد من تصرُّفهم!!، وينغرس في عقله شيطان يوسوس له دائما: بأنَّ هؤلاء متخلِّفين رَجعيين!!، أمّا هو

فمن المتحضِّرين الذين يؤمنون عن عقل ودراية بصعود الإنسان إلى القمر!!، وهٰذا ليس بالمستبعد، بل إنني أمتلك من أمثال هؤلاء أمثلة كثيرة، رُوّادُ هٰذه الطبقة ما زالت تعيش في قَصْرها العاجيِّ المجبولِ بِناؤُهُ من الخُرافات وألْبان العصافير!!، وقد نَسِيَ هٰؤلاء أن الإنسان مهما بَلَغَ أَوَجُهُ واشتدَّ عودُهُ «ما هو إلاَّ على آلة حدباءَ محمولُ» في يوم من الأيام!!، وحينها لن تنفع هٰذا الإنسان أو أيَّ إنسان آخر، لا أموال الأرض ولا كنوزها ولا معايشها الطَّريفة والتَّليدة معاً!!. إنَّ (الأنا) المتغطرس الذي يَقْبَعُ في داخل أَرْوِقَةِ هٰذه النُّفوس الخاوية، هو الذي يطغى على مثل هٰذا السُّلوك أو مثل هٰذه التصرُّفات المشينة، بحيث أنَّ هٰذا (الأنا) أو أن هٰذه النَّرجسية المُطْلقة تُقْنعه بأنه يتميَّزُ عن غيره في مثل الأمور التي ذكرناها قبل قليل، وأنه لولا حُسْن تُصرفه وَحِنْكَتِهِ وَثُقْبِ فكره النيِّر، وبفضل جهوده ومكابدته . . . لولا كل هٰذه جميعا، وأخرى غيرَها، لَمَا استطاع أن يتوصَّل إلى الدرجة العالية من الغنى والثروة والجاه!! زِدْ على ذلك فإن كل معاني النَّقمة التي كانت غافيةً في اللاَّشعور فإنها تنهضُ وتستفيقُ وتصحو فجأةً لِتَرْكب فَوْقَ جبهة رأسِهِ، وتقفُ منتصبةً ومتأهِّبةً فَوْقَ هٰذا الشُّعور الذي يَغْلي، بُركاناً يُلْقيه حِمَماً ملتهبة على كل أولئك الذين أصبحوا في رأيه لا يَمُتُّون إلى واقعه الجديد بصلة!!.

على كل حال، نعرج ثانية إلى موضوع صاحبنا الثري، الذي يعيش في دول الاغتراب فقلنا أنه لا يستطيع، أن ينتمي إلى طبقة

غنية متمايزة عن غيرها، فهو لا يستطيع مثلاً أن ينتمي إلى طبقة الأغنياء من المـواطنين!! لأن أكثر دول الاغتراب هٰذه، تكاد أن تختفي الـطبقية عنـدهم، فالمـادة على الرغم من تضخمها عند بعضهم، إلا أنها لم تَبْنِ تلك الحواجز النَّفسية بينهم وبين غيرهم من الفئات الأخرى من مجتمعاتهم، ويعود السبب في ذلك، أنهم ما زالوا يعيشون على نفس العادات والتقاليد، التي توارثوها قديما، فمجتمـع البـداوة على الـرغم من توفـر الأسبـاب المَـدَنية والحضاريـة، إلا أنه ما زال حَيًّا قائماً في أذْهان الجميع، إذن فَـ (الأنا) لا تجده مُتَضخِّماً عندهم إلى الحد الذي نتصوره، كما هو حاصل في المجتمعات الأخرى، فالمغترب الثري إذن لا بد له وأن يلجأ إلى أفراد جاليته من المغتربين، أو إلى فئة محدودة منهم، فتراه يقيم علاقة اجتماعية عادية معهم، فهو مضطر إلى ذلك، ولا يستـطيع أن يبغي عنه إلى غير ذلك سبيلاً!! فالنَّواحي المشتركة التي تجمعـه مع غيره من المغتربين من هموم ومشاكل مشتركة، كذلك نظرة الأهالي من المواطنين، هي نفس النَّظرة له ولغيره، فهو بالتالي أجنبي على نفس شاكلتهم!! فالواجب عليه إذن أن يقترب من أبناء جاليته، الذين يساوونه ويشاركونه في كل هموم ومشاكل الاغتـراب المتعـددة!. أمَّـا إذا ما عاد هٰذا الثري المغترب إلى بلده الأصلي، فإنك ولا شك ستلمس تضخم هٰذا (الأنا) عنده في بلده الأصلي، حينما يعود إليه في إجازة مثلاً، فقد تجده قد ألغى كل ما كنت قد تعرفه عنه، فهو يحاول أن يُمارس حياتَهُ الأرستقراطية في بلده، فيستبدل ملابسه التي كان يرتديها في دول الاغتراب،

بأخرى جديدة، ويرتاد أماكن لا يَخْطُر لَكَ على بالٍ أَنَّهُ من هواتها مطلقاً، فهو في بلده يتخلّى عن شخصية ذلك المغترب المتواضع إلى شخصية تختلف اختلافا كليا عن تلك الشخصية التي كنت تجلس معها وَتُحادثها عن قُرْب، وتجلس معها جَنْباً إلى جَنْب!!.

إنَّ ما أردنــا التوصُّلَ إليه في هٰذا السِّياق، هو أن علاقَـة المغتربين بعضُهم ببعض، تفرضُها عليهم الظروف القائمة، ولهٰذا فإن الفوارق فيما بينهم، تُخْفيها هموم ومشاكل الاغتراب، وحينما تزول ظروف وعوامل الاغتراب، فإن هٰذه العلاقات تختفي تماما، وفي هٰذه الحالة، فإنه لا بد لأي شخص حينما يعود إلى بلاده أن ينتحل لنفسه شخصية تختلف عن تلك الشخصية التي كان يظهر بها في دول الاغتراب، فيعود إلى شخصيته الطبيعية على حسب ما هي عليه من الثراء والفارق الاجتماعي، وسنقوم بإلقاء بعض الضوء على هٰذه النقطة حينما نتحدث عن تصرف المغترب حينما يعود في إجازة إلى بلده إن شاء الله.

أمّـا الآن، فنحن ما زلنا نتحدث عن علاقة المغترب بزميله المغتـرب في بلاد الغـربة، وللدخول في معرض حديث كهٰذا، يتـطلب منـا الحـذر والدقة، حينما نريد أن نَسْتشرفَ أغوار هٰذه العـلاقـة، خاصَّة وأن مجال حديثنا يدور حول علاقة المغتربين ببعضهم البعض، على مختلف الجـاليات، وليس مُقْتصراً على جالية بنفسهـا، فالمغتـرب لا يستطيع أن يَنْفَصِمَ في علاقاته مع الآخـرين، لأن مجال عمله، ومكان سُكْناه، وتعامله في السُّوق

سواء مع التُجّار أو مع المهنيين أو أي مكان آخر، لا بدَّ وأن يتعامل مع جنسيات أخرى، فهذا المجتمع الذي يعيش فيه مجتمع يتكوَّن من جنسيات عربية وغير عربية فيه مُعْظم الجنسيات العربية تتكون من جنسيات مختلفة، أمَّا الجنسيات الأخرى فمعظمهم من دول وشعوب آسيوية وإفريقية، كالهندية والباكستانية والبنغلاديشية والفلبينية والكورية. فإذا ما نحن دقَّقنا النَّظر في كيفية تعامل الفرد مع مختلف هٰذه الجنسيات، التي نستطيع أن نضيف عليها جنسيات أخرى أوروبية شرقية وغربية وأميركية، فإنه من الوهلة الأولى قد يصعُبُ على المرء أن يحدد كيفيات وأُسلوب هٰذا التَّعامل، لأنَّ المرءَ لم يسبق له، وأن عَرَفَ أُسلوب هٰذا الخليط من البشر من قَبْل، فهذه الطِّباع كُلُّها مختلفة، ولن تستطيع أن تلائم بين هٰذه الطِّباع، مهما أوتيتَ من مهارة علمية أو فِطرية، في دراسة نفوس البشر!! فإذا ما نحن قد أردنا، أن نستعرض علاقَتَكَ كَفَرْدٍ مغترب، مع إحدى الجنسيات العربية، فإن استعراضَ أَمْرٍ كهذا، يُعْتبر في حَدِّ ذاته مشكلة.

أما إذا ما أردنا المداورةَ والمداراة، فإن أَمْراً كهذا سيكون عاديا، وهو بالتَّالي، ليس بحاجة إلى بحث أو تمحيص، ولكن أرجو أن أُطَمْئنَ القارىء الكريم، أنني سوف، أتحرَّى الصِّدق في القول، ما استطعت إلى ذلك سبيلا: لأن الصدق في أيامنا هٰذه يتطلب الشَّجاعة والشجاعة تتطلب قُوَّةً نفسية، والقوة النفسية تتطلب إيمانا قويا، والإيمان القوي، يتطلب معرفة الله معرفةً

مُطلقة، وإنني أرجو من الله، أن أكون ممَّن يعرفونه حقَّ المعرفة، لأن هٰذه المعرفة هي تحرير للإنسان من القيود والأغلال البشرية.

فإذا ما أردنا أن نتناول علاقة الفرد العربي بغيره من الجنسيات العربية، فَأَول ما يتبادر إلى ذهن القارىء حينما يسمع بموضوع كهذا، هو أن يَسْتَسْهل هٰذه العلاقة وهٰذا التَّعامل، ويعتبرها بسيطة كل البساطة على اعتبار أنهم عَرَبَاً، أو تجري في عروقهم الدماء العربية، وإنني قد أوافق القارىء الكريم، كما سبق، أن قُلْت على هٰذا الاعتقاد بشكل عام، أو في نطاق دائري شامل، لكنْ مَنْ يدري ماذا يدورُ في داخل نطاق هٰذه الدائرة!! وَمَنْ منَّا قد يستطيع أن يسْتشْرف أغوار نفوسٍ مختلفة، كل نفسٍ تعيش في داخل مجتمع. هٰذا المجتمع له أُطُرُهُ ومقاييسهُ ومذاهبُهُ المختلفة التي تختلف عن المجتمع الآخر، وأَوَّلُ لسعة أو لدغة سامة تدخل إلى جسمك، هي عن طريق هٰذا الاعتقاد السائد لدينا!! وإنني لا أدَّعي هٰذا الكلام جُزافاً، وإنما عايشتُهُ عن حقيقة وأمرٍ واقع، وقد عانيْتُ من هٰذا الاعتقاد كثيراً!! وَأُصِبْت من جَرَّائه بأضرار مختلفة، حيث أن الإنسان، حينما يجد منذ الوهلة الأولى، أنَّ له زملاء عرباً ويعملون معه في نفس مكان العمل، فإنه لاشك سيشعر بأنواع مختلفة من الفرح والسعادة الغامرة، لأنه لم يسبق له من قبل وأنْ رأى جنسية أخرى عربية، كي يتعامل معها عن قرب واحتكاك يومي، في العمل.

أذكرُ أنني سافرت منذ مطلع حياتي العملية، إلى دولة عربيا

إفريقية للعمل هناك، وحينما وجهني أحد معارفي، إلى المكان الذي سأعمل فيه فإنني أول ما التقيت، بِمُهَنْدس عربيٍّ من إحدى الجاليات الكثيرة هناك، وحينما ذَكَرَ لي هٰذا المهندس جنسيته، كِدْت أن أطيرَ فَرَحاً وسروراً، وقلت له بالحرف الواحد: «يسعدني يا أخي أن أعمـل مع جنسية . . .» وقد شَكَرني ذلك المهندس على شعـوري الجميل هٰذا!! ثمَّ بعد إنتهاء العمل، اصطحبني معه، إلى مكان السكن، وما زلتُ أذكر أنني لم استطعْ حينها أن أرى أرضية ذلـك البيْت من كَثْرة الأتربة والغبار المتراكم عليها، فطبقةٌ من الرِّمال والغبار والأوساخ، تزيد بدون أية مبالغة عن أكثر من خمسة سنتمترات أمر عجيب ومؤسفـ!! ثمَّ ما كان مني، بعد أن فَرَغْنا من تناول طعام الغداء منذ اليوم الأول، أن تناولت مَكْنَسة وبدأتُ في تنظيف الأوساخ المتراكمة على الأرض، وحينما فَرَغْتُ من ذلك، بعد تعب وجهد شديدين، تناولْتُ ورقةً كرتونيةً وكتبتُ عليهـا: «النـظافـة من الإيمـان!!» وقد كنت أُعَوِّلُ على زملائي هؤلاء، أن يشكـروني على صنيعي هٰذا الـذي قمت به، خاصة وإنني أُعْتَبَرُ ضَيْفاً منذ اليوم الأول من وجودي بينهم، إلا أنهم حينما عادوا إلى البيت، وكانوا في ذلك الوقت قد خرجوا من المنزل، فإنهم قد تَبَسَّموا ابتسامة صفراء لوجودهم البيت نظيفاً!! ثم ما لَبِثَت ابتسـامتهم الصَّفـراء وأنْ تحوَّلَتْ إلى كَشَرةٍ حادةً، حينما وَقَعَتْ أعْينهم على اللافتة التي كَتَبْتُها!! كانت تلك الكتابة تَنُمُّ عن براءة زائـدة مني، لم أقصد لهم فيها أية إساءة، وقد كان هَمِّي الأول والوحيد، هو أن نحاول أن نعيش في بيت نظيف، يسوده التفاهم

والتعاون، من قبل الجميع ولكن ما لبثت حسن النية عندي وأن انقلبَتْ عندهم إلى سوء ظن، مما جعلهم منذ اليوم الأول يتعاملون معي بكل أنواع المكر والخديعة والتربُّص أيضا، وما زالوا يوشون بي لدى صاحب العمل من فترة إلى أخرى ولم يكلوُّا أو يَمِلُّوا من ذلك، إلى أن خرجتُ من تلك الشَّركة نهائيا بعد مرور أقل من ستة أشهر تقريباً!!.

والغريب الذي أدهشني في هٰذا التَّعامل الذي كان يسوده المكر والخديعة هو أنني لم أتعرَّف على هٰذه الأساليب لا مِنْ قَبْلُ ولا مِنْ بَعْدُ!! وقد فوجئتُ بنوع من هٰذا الأسلوب الجديد، الذي وقفت أمامه صامتا محتارا، لا أعرف معه حراكا قيد أنملة. فهذه النَّماذج من الأساليب وبحمدٍ من الله لم تَكُنْ تتواجد في بيئاتنا التي عشنا حياتنا فيها، ولم نتلقَّاها من أَبَوَيْنا لا حينما كُنَّا صغاراً ولا بعد أن كَبِرْنا، كذلك لم نَدْرُسْها في المدارس، لا من المعلمين، ولم نتعلمْها من زملائنا الطلاب، كان جُلُّ التَّركيز في محيط البيئة التي نعيش فيها، يهمسُ في آذاننا في السِّر والعَلَن: «الصدقُ والإستقامة».

هٰذا مَثَلٌ من ضمن أمثلة كثيرة سُقْتُهُ لك عزيزي القارىء حتى تتعرَّفَ على إحدى الجوانب التي تدخل في إطار تعامل المغترب مع غيره من المغتربين مثله!! وأظن أن القارىء الكريم حينما يقرأ مَثَلًا كهذا، فمن الممكن أن يعتبرَهُ أمراً أو حدثاً طبيعيا، دونَ أن يُلْقي أَيَّةَ ظِلالٍ قاتمة على أَيِّ تعامُلٍ في المستقبل!! ومن

البديهي جدا أن أُوافقه على تصُّوره هٰذا، إذا اعتبْرنا أنَّ حوادث مشابهة لن تتكرر.

ولكن إذا قلت لك ـ عزيزي القـارىء ـ أنَّ أسـاليب المكر والخـديعـة، التي ظلَّت تلاحقني، وتلاحق غيري، طوال سنين الغربة من إحدى الجنسيات المغتربة، هي التي أَقْلَقَتْ مضاجعي في الغـربـة، وَتَـركَتْني دائم الخـوف والتـرقُّب والحَـذَر، إلى أن اختتمت أيام الغـربـة الأخيرة، بقصـة جعلتني أخـرج من دائـرة الاغتـراب إلى دائرة العيش في أحضان الوطن. والوطنُ والغربة مستقيمـان متـوازيان، لا يمكن أن يلتقيا أَبَدَاً. وهما بالتالي كَأُمٍّ وَكِنَّتِهـا على طَرَفَيْ نَقيض!! فالغُـربة لا تريدك أن تفكِّر بالوطن «الأم» مطلقـا وإلاَّ طَلَبَتْ منـك الـطَّلاق والـرُّجـوع إلى أحضان وطنـك، والـوطن «الأم» هي أيضا قد أخذت على نفسها بعض الشيء، فهي لا تغضب ولا تقسو عليك، ولا تريدك أن تظل في أحضان تلك المرأة «الغربة» التي هي عبارة عن رُزْء مَطْليٍّ مُمَوَّهٍ بَرَّاقٍ ببعض الدنانير الذهبية، وهي تخاف من هٰذه المرأة، أنْ تُفْسِدَ علَيْكَ حياتَكَ، لأنَّها في واقع الأمر، لا تَصْلُحُ أن تكون الزَّوجة الصَّالحة المستديمة، فالزَّواجُ من الغربة، هو زواج يجبُ أن يكون مؤقتا، من أجل تحقيق مصلحة أو هدفٍ معيَّن مُحَدَّد، وبحمدٍ من الله، فإن أساليب المكر والخديعة، التي سَبَقَ الحديث عنها، هي التي أعـادتني إلى أحضـان الـوطن «الأم» كي تمسـح عنَّـا تلك الدموع، التي تحجَّرَتْ في المآقي طوال السنين العجاف الطِّوال.

المكـر الـذي أُحدثك عنه عزيزي القارىء، لا أستطيع أن استجمعه في هٰذا الكتاب، لأنه ربما يُخْرجنا عن نطاق موضوعنا الأصلي، وأن أُسلوب المكر والخديعة هٰذا لا يستطيع أن يستعمله أيُّ إنسان، ولكن نوعية جبانَةً من بني البشر، تستعمله بكل خُبْث وَدَهـاء منقـطعيْ النّـظير. وصـاحبُهُ عادة ما يكون جَباناً، لأنه لا يستطيع مواجهة الأمور بالشجاعة وجهاً لِوَجْه، وإنما يلجأُ إلى هٰذه الطريقة الخبيثة، كي يوقع بأخٍ أوزميلٍ له في العمل، يجلس معه كل يوم أكثَـر من سبع ساعات، وأُريدُ بهذه المناسبة أن أعرفّك عزيزي القـارىء على نفسية الماكر الخبيث فهو علاوة على أنه جبان، فهو أيضا لئيم وخبيث، يملك حِنْكَةً من الدّهاء، يكتسبها من بيئته التي عاش فيها، والماكرُ خبيثٌ أيضاً، ولا تطيق عيناه النّوم أو الأغمضاض، ما لم يدبّر مَقْلَباً، لِفُلان أو عَلّان!!، ولعلَّ نفسيةً أو عقليةً تَنْتهج هٰذا النّهج، لا بد وأنَّ صاحبَها سيكونُ كثيرُ الحَسَدِ والكـراهية لغيره فهو إذن مصابٌ بمرض نفسي خبيث، وقد تُلحُّ عَلَيَّ هٰذه المنـاسبـة أن أتوسَّعَ بعض الشيء، في ذكر الماكرين والمُخادعين، لَعلّنا نُنَبّهُ النّاس، بَعْضَ ما أَمْكَنَ للنّفاذ من شرّهم، إنْ استطعنا إلى ذلك سبيلا!! فالماكرُ أو المخادعُ لا يستطيع مطلقاً أن يعيش في أي ظرف أو منـاخ، يسـاعده على ممارسة مهنته، حسبما ينبغي، ولكنْ يجبُ أن تتهيّأ له ظروف معينة، تساعده على الفَتْك بغيره، تماماً كالجُرثومة أو البَكتيريا الضارة، التي يجب أن تتهيأ لها ظروف التّكوين والعمل الضار ومناخ هٰذه الأنواع الشريرة والضـارة، من بني البشـر، يجب أن تتـوافر فيها صفات أهمّها:

صفاتُ البُعْدِ الإنساني عن كل ما هو إنساني، أو فيه خيرٌ لغيره من بني الإنسان!!.

هٰذا الأنموذج يجب أن يكون منافقاً بالدرجة الأولى! وَيَهُزُّ ذَنَباً طَويلاً يظلُّ دائم التَّأَرْجُحِ لِرُؤسائه في العمل، أو لأي إنسان آخَرَ يرى أنه يستطيع أن يحقق مصلحتة الخاصة بواسطتة. وإذا أردتُ أن أُحَدثكَ، أيها القارىء الكريم عن مصالح هٰذا الشخص، فإنها كثيرة لا تُحْصى ولكن أُحب أن أقول لك، أنه ينظر إلى جميع مصالح الغير، على أنها يجب أن تكون له!! فإذن شهوانية هٰذا الشخص، وطمعه لا يقفان عند حدّ، فهو يمضي من تحقيق شهوة إلى البحث عن أخرى غيرها، وكل هٰذا على حساب غيره من الناس، وكلَّما نجح في تحقيق رذيلة فإن الرَّذائل الأخرى التي هي أكبر من رَذيلته الأولى التي ارتكبها في حَقٍّ غيره، تزدادُ صِغَراً في عَيْنَيْه، ويصبحُ أمْرُ تحقيقِها مُمْكناً في رأْيه، ويزيده جُرأَةً على تحقيقها!! وإذا ما قرأ حديثنا هنا إنسان، فإنه سيتساءل: كيف يستطيع هٰذا الشخص أن يفعل ما يفعله، من إيذاءٍ للآخرين. ألا يجد من يَحِدُّ من تصرُّفاته المريضة هٰذه؟!! وإنني هنا أود أن أُعَرِّفَ القارىء الكريم، الذي هو ليس بِمَعْزلٍ عن بعض الجوانب التي لا بدَّ، وأنْ عايش جزءا صغيرا أو كبيرا منها في بعض جوانب حياته، فالماكرُ لا بدَّ وأن يَلْقى التَّشجيع في التَّمادي على غيره من الناس، وهٰذا التشجيع غالباً ما يَلْقاه من المسؤولين عنه في العمل، أو من شخصيات أخرى، لها مركز مرموق في نفس

المجتمع، ومعاضدة هؤلاء له، تَكْمُنُ في أنه قد يؤدي لهم خدمات واسعة، ومريضةِ أيضا!! لا يستطيعون تحقيقها إلا بواسطته!! فإذن هم يُديرون البالَ عن مراقبته، أو توجيه أي لَوْم أو عتابٍ له، إذا ما وَشى به أحـد عنـدهم، وإذا حاولْتَ أن تُفْهِمَ مديرَ عَمَلِكَ مَدَى الخطورةَ التي يُسَبِّبُها هٰذا الشخص من الشرِّ والأذى لغيره من الناس فإنك لن تجد منه أية آذان صاغية!! بل على العكس، سيضع على إسمك دائرة بالقلم الأحمر، ويبدأ في تشجيع تلك الشِّلَّة الماكرة في محاصرتك، وتوجيه نَكَدِ الدُّنيا عليك كل يوم!! إلى أن ترى نفسـك معـزولاً تمـاماً عن رؤسائك، ومن زملائك في العمل!! والـزُّمـلاء هم أيضا يجب أن يُؤازروا هٰذا التَّوجه، وإذا ما خالف نصوصَهُ أَحد، فإنه يوضع في داخل الدَّائرة الحمراء مع زميله الآخر من قِبَـلِ مدير العمـل، وحينهـا تبـدأ رحلة الانفعال والاستفزاز الشديدين: استفزازٌ يوميٌّ متلاحق ومتكرر، على مدى الدَّوام الرسمي!!.

أذكر أنني في أواخر الشهور الماضية من إنتهاء عملي، أنَّ عدداً من الأشخاص، من جنسية ما من الوطن العربي، قد زادت من درجـة التحرُّش بأحد زملائي في العمل، وأقول أنها زادت، وذلك دليل على أن المضايقات كانت في الماضي مستمرة، ولكن لم تكن لتصل إلى درجة الغليان، ولكن حينما سنحت تلك الفرصة الذهبية لهم، على إثْر نشوب الأزمة الأخيرة، فإن أَحَدَ أفراد هٰذه الجنسية، الـذي يتميَّز بالمكـر والخبث، قد عقـد العزم على

الاطاحة بهذا الزميل، وقد كان طوال تلك الأزمة، لا يشارك زُملاءه في الحديث اليومي الذي كان يجري صباح كل يوم أو في أثناء فترات الدَّوام الرَّسمي، كان جُلُّ ذلك الحديث، يتركز حول أمور السياسة الخاصة بالأزمة الأخيرة، وقد أخذ يلمس ذلك الزميل أن الغرض من إثارة هٰذا الحديث هو الإيقاع به في إحدى المطبَّات السياسية، وقد عَقَدَ العزم في البداية على عدم التكلم، بل كان الحديث يجرى من حوله، ويأتي أفراد تلك الجنسية الماكرة، ويتجمعُّون في نفس الغرفة، ويأتي أفراد آخرون من المواطنين ويأخذون في اختلاس النَّظر إليه وهو جالس لا يتكلم وقد كنت أَلْمَسُ تلك الابتسامة الصفراء المرسومة، على شفاه كل واحد منهم وهو يتأمله ويراقبه عن كثب، بل كنت أُرى الشَّرَّ يتطاير أحيانا من عيونهم، وهم يتطلعون نحوه، لأنه لم يكن ليشاركهم الحديث الذي نصبوه فَخًّا له!! وأيُّ حديثٍ يريد أن يشارك فيه، وهو في معظمه توجيه إساءات ومسبَّات وشتم وتجريح لأبناء شعبه وبلده!! لَمْ يكن يحسن التصرف غير أن يعتبر كل هٰذه التوبيخات التي تشن عليه، من حين لآخر، إلَّا أنْ يوهمهم أنه يشاطرهم في بعض أقوالهم لأنه لم يكن لِيَستطيع أن يواصل تعامله معهم، في ظل ظروف كهذه، غير هٰذا التصرف!! ولم أُرِدْ لأُخفي لقارئى الكريم، أن ذلك الزميل قد جلس أياما وهو يعتزلهم في غرفة كانت منفصلة عن مجلسهم، بواسطة قواطع زجاجية إلى حين إنتهاء الحديث. ثم يعود بعد ذلك إلى مكتبه، وحينما يعود إلى مكتبه، تبدأُ رحلة الحديث مرة أخرى من جديد!! وتحمَّل ذلك الزميل تلك

الاستفزازات الخبيثة، حيث كان يود، بأن تكون شخصية موجهة له بشكلٍ مباشرا! إذن حينها، لو كانت كذلك، لَدافع عن نفسه وصرخَ بأعلى صوته!! ولو أنه أبْدى أية ممانعة، أو كُرْهٍ لِمَا يُوجهونه من عداء له ولأبناء بلده، فإنه لا بدَّ حينها، وأن تُلْصق به إحدى التُّهم، التي ستضعه على أقل تقدير في ضمن قائمة التَّرحيل والنَّفي من البلاد!! الْمُهم أنَّ تلك الشخصية الماكرة التي تحدَّثْتُ عنها قبل قليل، أَخَذَتْ ترسم مسارات أخرى ضد ذلك الشخص، حيث أن مهنة العمل لكليْهما كانت واحدة، وقد تَرَدَّدَتْ إشاعات في ذلك الوقت مفادها بأن دائرة العمل، تنوي الاستغناء عن واحد منهما، فقرَّرَ ذلك الخبيث الماكر أن يتخلص من زميله عن طريق تكريس كل إمكانات مدرسته المكرية ضده!! وقد كنت أَلْمس استعانات ذلك الماكر بِمدارس المكر الأخرى التي كانت تتمثل في زملائه، من أبناء جنسيته، الذين كانوا معه، في نفس مكان العمل، وقد كانوا بالطبع لا يبخلون عليه في طرح أية أفكار جديدة، أو في تقديم النصائح والاستشارات التي من شأنها أن تخدمه، ومن ثَمَّ تجعل الأمور في نهاية الأمر تسير في الاتجاه الذي يخدمه، وَيُسَيِّرُ الأمور خالصة في صالحه!! وعلى ما يبدو، فإن الذي عقدوا عليه النيَّة، قد تحقق، واستطاعوا إقناع مدير تلك الدائرة المغبون أو المأفون، في أن ماكرهم هٰذا، وهم بالطبع أكثر مكرا وخبثا منه!! في أنه أَحَقُّ من ذلك الزميل بأن يبقى على رأس عمله!! لماذا؟!! لأن بلده والقائمين عليها يتعاطفون بكل حرارة وَيَبُحُّون أصواتهم وحناجرهم ويضمونها بكل وفاء وإخلاص، إلى

البلد الذي يعملون فيه، وإلى البلدان الأخرى التي تقف مع ذلك البلد!! وبالطبع فكيف لا يقبل ذلك المدير السّاذج هٰذا الأدّعاء؟!! وكيف لا يقوم بعمل مثير، فيشفى قلبه وقلوب أولئك الماكرين معه!! فيقصي ذلك الزميل عن رأس عمله، ويبقى ذلك الماكر ومن معه مُتَربِّعين على رأس ذلك العمل؟!! يعيثون في الأرض وفي مكان العمل فساداً!! وذلك المدير المغبون قابع وراء طاولته العريضة جدا، ويتمركز فوق كُرسيِّه العالي، كأنَّهُ ضَبُعٌ قد لعق بِآخِرِ قطرة دم من لحم ضحيته، وتمطى بعد تلك الوجبة الدَّسمة، ليأخذ غفوة، أو لينام ويستريح من عناء ما حشد في ذلك البطن، من لحوم الضحايا الضعيفة، التي لا حول لها ولا قوة!!.

إنني قد سقت هٰذا المثل، كي يتفهم القارىء الكريم، ويكون في نفس الوقت، على يقين تام، أن بعض الجنسيات المختلفة في بلاد الاغتراب تُكِنُّ لبعض الجنسيات الأخرى التي تنافسها في العمل، كل عداوة وكره واضطهاد!! وتضع في نصب أعينها، العملَ على محاربة هٰذه الجنسيات، وفتح أبواب من المكر والخبث ضدَّها، كي تبقى بدون منافس، تتحكم هي بنفسها بسوق العمل كيفما تشاء وكيفما تريد!! وكذلك كي يتفهم أيضا وضع هٰذه الجنسيَّات، وما هي عليه من التحاسد والتضاغن والحرب غير المعلنة، من أجل أن يعلو فرد على فرد، أو جنسية على أبناء جنسية أخرى!! فإذا ما كان أفراد جنسية ما في دائرة ما هم الأغلبية العاملة فيها، فإنك ولا شك سترى، أن كل فرد يتربص

بالآخر، ويحسده على أية نعمة يحصل عليها، وإذا كان موقع العمل، يتكوّن من جنسيات متعددة، فإن كل جنسية ستتحزّب ضد الجنسية الأخرى، وينشأ ذلك الصراع الدائر، على مرأى ومسمع من مدير الدائرة أو المسؤول عنها، وهو في هٰذه الحالة، يتحقق تماما، بأن أمور دائرته تسير في طريق الألف خير، إذْ إنه يعتبر أن ذلك يُمَثِّلُ صحة إدارية حسب اعتقاده، ولن يتفق هؤلاء «الأجناب» ـ على حسب قولهم ـ من الاتفاق أو التعاون المشترك ضد دائرته!!.

أما إذا اتفقت هٰذه الجنسيات، وهٰذا طبعا ضَرْبٌ من ضروب المستحيل، وخاصة إذا كانت هناك، إحدى الجنسيات التي تشتهر بالمكر والخبث والدهاء تعمل بينها فإذا اتفقت، فإن الأدارة ستقوم فورا بتحريض المنافقين والذين في نفوسهم المكر السّاكن فَيُحركونه وَيُنَشِّطونه، وهنا تبدأ أَلْعاب البهلوانات الشيطانية التي تبدو وكأنها ظلال واشباح متحركة، تقفز وتتحرك على إحدى الجدران في غرفة موقدة بالنيران في عتمة يوم بارد!! إنَّ هٰذه الأشباح وهٰذه الظلال، التي تتحرك، لا شك وأنَّ منظرها سيكون مخيفا ومقلقا ومزعجا بالنسبة للإنسان المسالم، الذي ينشد الهدوء والاستقرار النّفسي!! إنه لا يستطيع أن يشارك تلك الأشباح في رَقَصاتها القذرة تلك، ولن يستطيع أن يجلس في نفس تلك الغرفة مدة طويلة من الزمن، وهو إن اضطر إلى ذلك، فإنه سيجد نفسه، وقد خرج من ذلك المكان مصابا بالدُّوار والأغماء علاوة على فقدان

النطق والحركة! إنني أريد أن أزيد في الأيضاح. إن هٰذه الجنسيات المختلفة، ليست على خلاف ولا صراع قائم فيما بينها جميعا، ولكن هٰذا الصراع ينحصر بين إحدى الجاليات الكبيرة من طرف، ومن طرف آخر مع بعض الجاليات الأخرى المنافسة لهٰذه الجالية الكبيرة، مما ينشأ عن ذلك توتر قائم في مراكز أو مناطق العمل، التي يتواجدون فيها!! وعلى كل حال، فإنني أرجو أن لا يفهم من ذلك، أن هٰذا الصراع يمثل دائما خطورة كبيرة في كل مناطق العمل، وإنما يقْوي هٰذا الصراع ويصبح خطيرا جدا، حينما تتحكم تلك الجالية الكبيرة في أمور العمل، وتمسك بالتالي في رقبة المدير، عن طريق نفاقها المتزايد وهزِّ الذَّنب له!! مما يجعلونه مع الزمن أُلْعوبة وَدِمْيةً في أيديهم!! يُحركونه حسبما يشاؤون، دون أن يبدي حراكا غير أن ابتسامة صفراوية تراها تنبعث على صفحات وجهه، ترمز إلى تلك السَّذاجة التي يتمتع بها عن جدارة واستحقاق!!.

إذن فهذا الصراع الذي ذكرناه، يتفاوت بين أفراد كل جالية وأخرى غيرها، على حسب التفاوت في الثقافات والمفاهيم الأخرى للجوانب المتعلقة بأمور الحياة على مختلف أنواع الأصعدة، ومن هٰذه المفاهيم نأخذ مفهوما واحداً سبق وأن أسهبنا في شرحه قبل قليل، وهو المفهوم النظري للغير، من سُلَّم الحسد والجشع، فمثلا يحسد هٰذه الجنسية أو أفرادها المتواجدين معه في العمل، على أية مزايا يحصلون عليها، ولا أريد أن أقول هنا أن

نوعية المزايا تكون مثلا راتباً ضخما، أو رزقاً حسنا، وانما أريد أن أُبَسط الأشياء أكثر، ولن أُبالغ إذا قلت، أن ابتسامة رئيسك في العمل مثلا، ربما تُحْسد عليها من قبل إحدى الجاليات العربية التي سبق الحديث عنها قبل قليل، وإنهم لا يترددون في تَتَبُّعِ خطواتك خطوة خطوة، حتى إذا ما شربت فنجان قهوة عند إحدى جيرانك، فإنهم في اليوم التالي يفاجئونك بعلمهم في الزيارة، ويأخذون في التطلع نحوك بكل حسد وغيرة!! وكأنهم يريدون أن يوصلوا إليك معلومات مفادها: أنه يجب ترك كل ما هو مفيد لهم وحدهم، دون أن يشاركهم فيها أحد، فهم أَحَقُّ بالخير من أية جالية أخرى!! ولا أدري على ماذا يبنون مفاهيمهم المغلوطة تلك!! اللهم أنك تراهم غالبا ما يَطْرون جدا في مدح أنفسهم وبلدهم!!، حتى إنهم في غالب الأحيان ما يقولون عن أنفسهم، أنهم هم أُمُّ هٰذه الأرض!! وحينما تسألهم: فمن والدها إذن؟!! فيقولون: ليس لها أباً، وإنما لها أُمٌّ فقط؟!!.

إنَّ مثل هٰذه الأمور التي اتحدث عنها غالبا ما يلمسها المرء في المجتمعات القروية، والمدن المتوسطة الحجم، ذلك لأن التَّعرف على مثل هٰذه النفسيات الخبيثة يكون ظاهرا للعيان بشكل أظهر وأوضح كثيرا عمَّا يكون عليه في المجتمعات المدنية الكبيرة. إنَّ مجتمع المدينة يستطيع امتصاص كل هٰذه الأحداث، ولا تكاد تظهر آثارها وذلك تماما كأمواج المحيط، مهما بلغت ضخامتها وارتفاعها فإن اتساع المحيط وعمق مياهه يستطيعان

امتصاص هٰذه الأمواج وطيّها، دون أن تحدث أية أضرار، ولكن إذا ما بلغ ارتفاع هٰذه الأمواج من الضخامة نفسها مثلا على سطح مياه إحدى البحيرات الصغيرة، فإنه لا شك، وأن مياه هٰذه البحيرة، لا تستطيع أن تطوي هٰذه الأمواج، وَتَلُفُّها في باطنها، كما تفعل مياه المحيط، وإنما ستقذف هٰذه المياه بهذا العُلُوّ خارج حدود البحيرة، وحينها سنرى عظم الأمواج وضخامتها على سطح مياه البحيرة الضّحلة، وكذلك شدة تأثير هٰذه الأمواج على الأراضي أو القرى المحاذية لهذه البحيرة.

إن ما أود أن يفهمه القارىء الكريم هو أن هٰذه الجنسيات ليست كلها في صراع دائم، وإنما تتفاوت هٰذه الصراعات فيما بينها، على حسب تفاوتها في المفاهيم الثقافية المتنوعة، وكذلك على حسب شدة نظرتها إلى أمور الحياة، وكذلك يَدخُل مع هٰذه المفاهيم، مفهوم آخر وهو المفهوم السياسي، فهناك جاليات عربية تتقارب كثيرا في نظرتها لأنواع هٰذه المفاهيم، ولهذا فإنك ولا شك، ستجد تقاربا وتفهما للعادات والتقاليد، ولا ينكرونها عليك، وإن أنْكَروا بعضاً من هٰذه المفاهيم، فإن التّفهم الثقافي لديهم، يمنعهم من التنكر لك، وتسجيل العيوب وإلصاقها بك. هٰذا بالنسبة لبعض الجاليات التي تراها تتقارب في درجات الصّدق، ولا تمتهن المهن المهينة للإنسان، كالمكر والخديعة وغيرها مما سبق الحديث عنها، ولهذا فإنه إذا ما حدث خلاف بينك وبين غيرك من أنواع هٰذه الجاليات، التي تتساوى تقريبا في

نظرتها للأشياء فإن حِدَّةَ الغضب وإيقاع الأذى والضرر بالغير، لن تكون الهدف المنشود والعمل المراد الذي يجب تحقيقه من أجل إشفاء الغليل من الضحية، وإبداء أنواع الشماتة منها!! وهٰذا بالطبع يختلف عما تحدثت عنه قبل قليل، بالنِّسبة لإحدى الجاليات، التي من طبعها مهادنتك وإظهار المودة والإخاء المتزايد لك، ولكنها لا تتردد عن الفتك بك، إذا ما سنحت لها الفرصة الملائمة في أقرب وقت ممكن!!.

وما دمنا كنا قد تحدثنا فيما سبق، عن علاقة الجاليات المختلفة بعضها ببعض فإن هٰذا لا يمنع من الحديث عن علاقة أبناء الجالية الواحدة بعضها ببعض، من أجل أن نضع النقاط على الحروف بشكل أجلى وأوضح وكذلك من أجل أن تخرج دراستنا هٰذه وتكون على شكل بحث اجتماعي، تتناول هٰذه الأنماط من الجنسيات المختلفة، متعدِّدة الأجناس، تعيش كلها في داخل بيئة واحدة ومحيط واحد يتعايش كل فرد واحد منها مع كل هٰذه الأخلاط البشرية، وتحكمه في نفس الوقت العادت والتقاليد والأحكام والقوانين، التي يجب عليه التقيد بها والعمل على احترامها في البلد الذي يحل فيه.

وإننا إذا ما أمعنا النظر طويلا على شريحة اجتماعية تتصف بهذا التكوين الاجتماعي المثير، فإنه أول ما يتبادر إلى أذهاننا أنَّ كل فرد من أية جالية، لا شك وأنه سيتصرف على حسب ما يحلو له، فهو سيخرج عن طور عاداته وتقاليده، وربما ينتسب في مثل

هٰذه الحالة في تعامله ونوع مأكله وتصرُّفه إلى أجناس أخرى غير جنسيته، سيجد نفسه مثلا، يسكن في عمارة، سكانها جُلُّهم من المصريين مثلا، ستجد هٰذا الأنموذج، ربما يأخذ ببعض التقاليد المصرية كلهجته مثلا، فإنه يكثر فيها من اللهجة المصرية وبعض الألفاظ المصرية!!، ثم تراه يكثر من الأكلات التي يستعملها المصريين، كأكل الفول مثلا!!.

والعائلات المصرية التي تسكن في نفس العمارة، ربما تأخذ عنه أنواعا من المأكولات أيضا!!، وهكذا يتراءى للإنسان أن فردا من جنسية ما، أو من جالية ما ربما يفلت من إطار طوْره وتقاليده ويذهب ليبحث عن أطوار وتقاليد أخرى تلائمه ويراها مناسبة له، وإذا ما ألقينا نظرة متفحصة حول هٰذا الموضوع، فإننا وفي حقيقة الأمر سنرى بعض ما ذكرناه حول أَخْذِ الإنسان شيئاً ما عن غيره من الجاليات الأخرى ولكنه لن يكون في حِلٍّ تماما عن كل ما يملكه من موروثات ثقافية وعادات سلوكية وتصرُّفية، إنه يحاول أَبداً أن يتمسك بمظهره الأصلي. فترى في دول الخليج مثلا، يرتدي معظم الأجانب هناك الثوب الأبيض، وترى القليل منهم يرتدي الكوفية فقط، أو الكوفية والعقال معاً، وهو يحاول في لهجته، أن يتكلم نفس لهجتهم وهو في هٰذه الحالة لا يود الأنفصال عن عالمه وموروثاته الأصلية، وإنما هو شديد التشبُّث بها، وقد يتوهم البعض مثلا مدى انفصال هٰذا الشخص عن عالمه الأصلي، لكنك إذا ما اقتربت منه بعض الشيء، وأصبحت تُحَدِّثُهُ عن قُرْب، فإنك

ستجد حقيقته الماثلة أمامك، وهو أنه إنسانٌ هُوَ هُوَ، بلحمه ودمه متأصلة فيه عادات وموروثات بلده الأصلي ولم يتغير فيه شيء وإنما التوهُّمُ قد بلغ على البعض، فتصوَّر أن الثوب وملحقاته هي تغيير للروح والعادات والقيم الأصلية وقد رأيت في غربتي نماذج كثيرة مثل هؤلاء الأشخاص، الذي يبدِّلون خارجهم وبعض دواخلهم كاللهجة مثلا، ولكنك تلمس روحهم الشفافة في حديثهم العفوي، الذي يَنُمُّ عن أَصالتهم، حيث أن معظمهم ممن أمضوا في الغربة زمنا طويلا، فعافاهم الله كم عانوا من عنائها، وذاقوا من وبَالِها، وتذوَّقوا من حسرتها!! وإذا ما أردنا أن نتوسع في هٰذا الموضوع، بشكل أكثر تفصيلا، فإنه من الواجب علينا أن نلتفت إلى الجوانب المهمة الأخرى، هٰذا الجانب يمثل في حقيقة الأمر شريحة اجتماعية كبرى في مجتمع الاغتراب، هٰذه الشريحة التي نقصدها هي مجتمع المدرِّسين، الذين يمثلون فئة كبيرة جدا، وقد رأيت أن هٰذه الفئة قد أصبحت تتلاشى تدريجيا وأخذت مع مضي الوقت، تتعرض عقودها لبعض الالغاءات، أو نَقْلها من أماكن التجمعات الكبيرة، وهي المدن، إلى مراكز التجمعات الصغيرة جدا وهي الهجَرُ والقرى والبلدان الصغيرة، مما أدَّى بالتالي، إلى تقليص تجمعُّاتهم الضخمة التي كنا نراها تَعُجُّ هنا وهناك، في الشوارع، وفي بيوت لعب الورق، ثم تراهم يتجمعون بعد إنتهاء دوامهم بالقرب من محيط البلدة أو المدينة التي يقيمون فيها، ويعملون لأنفسهم، حَلَقات جماعية خاصة بهم، كأَنْ يستعرضوا أحوالهم ومشاكلهم في العمل، أو أحوال ومشاكل غيرهم، أو أن

يجلسوا في البَرِّ جَلْسة على شكل حلقات، ويبدأوا بلعب الورق، وحينها تجد صياح كل واحد يعلو على الآخر، أو أن ينهر أحدهم زميله، أو أن يُوجه إليه بعض الألفاظ القاسية وهم من هٰذه الناحية يكـادون يُشكلون مجتمعـا قائما بذاته شِبْهَ منفصل عن الشرائح الاجتماعية الأخرى، فهم كما قلنا يشكلون الأغلبية في أي تواجد لهم، وإذا لم يكونوا هم الأغلبية فإنك ستجدهم أكثر إتحادا فيما بينهم، وهم في كل بلدة أو مدينة تراهم ينقسمون إلى مجموعات، كل مجمـوعة يُشكِّلُها واحد منهم، يتميَّزُ بقوَّته الشخصية، وقوَّته الجسدية أيضا، وهذان عاملان مهمَّان في أي شخص، يريد أن يترأس مجموعة ولو صغيرة كهذه!!، فالمجموعة غالبا ما تتكون من ستة إلى عشرة أشخاص، يجتمع أفرادها يوميا، وغالبا ما تجد أنَّ كل مجمـوعة تَنْهَجُ في أسلوبها وطريقتها نهجاً يختلف عن نهج المجمـوعات الأخرى، فترى أنَّ مجموعة ما تتخصص في لعب الـورق مثـلا، وهٰـذه المجموعة أفرادها قَلَّما يصابون بالتعب أو الملل، فهم نشطون دائما وأبدا، ويتنقلون كل يوم عند كل زميل لهم، فيجتمعون هٰذا اليوم مثلا، في بيت أحدهم، ثم في اليوم التالي عند الآخر وهكذا يظل الدور يدور وتدوم هٰذه التجمعات، التي أصبحت تشكل نَمَطاً من أنماط حياتهم وأصبحت تَرْسُمُ واقعا حيًّا في نفـوسهم، إلا أنـه وحسبمـا قلنا قبل قليل، فإن مجتمع المدرِّسين ينقسم إلى مجموعات، كل مجموعة منها: تتصف بلوْن خاص بها، فهذه المجموعة مثلا، تهتم بلعب الورق مثلا، وهٰذه الأخـرى يجتمع أفرادها لاستعراض المشاكل والتطورات القائمة

في مهنتهم، فالمدرس فلان مثلا، عارض مديره هٰذا اليوم معارضة شديدة، وكاد أن يضربه لولا أن منعه المدرّسون من ذلك!!، وفي هٰذه الحالة، فإنك سترى علامات الشجاعة والاعجاب، مرسومة على جبهة كل واحد منهم!! فالمدير هو العقبة الكأداء، التي تقف في وجه كل واحد منهم!! وهم يريدون أن تطلق لهم الحرية في داخل الفصل، والحرية كذلك في أُرْوقة المدرسة!! هم لا يريدون أن يعارضهم أحد، لا في التّدخين، ولا في فرض أَقصى العقوبات، على الطلاب الصغار الذين لم يَحلُّوا واجباتهم، أو يحفظوا دروسهم!! يريدون من الطالب أن يحضر إلى المدرسة، وقد حفظ كل دروسه، وأَدَّى كل واجباته، وما على حضرته إلا أن يجلس ويستريح في الفصل!!، أو أن يتّخذ من إحدى أركان الفصل مَرْكىً يُمَدد عليه عاموده الفقري، ليأخذ غفوة صغيرة يستريح فيها جسمه بعض الشيء، وذلك من جرّاء السهر المتواصل في الليالي السابقة!!، ولهذا السبب فهو منفعل جدا، فإذا سألته مثلا، عن إحدى أولادك في المدرسة، فإنه قد يَكِشُّ ويَمشّ، ويثور ويغضب!! ثم يهدأ ليلتقط أنفاسه ثم يحشرها في داخل جوفه ثم يطلقها دفعة واحدة، من شِقَّيْ أنفه!!، فما عليك حينها إلا أن تدير ظهرك قاصدا طريقك من حيث أُتيت، لا تلوي على شيء واضعاً في نصب عينيك، أن تكون أنت مدرساً خاصّاً لأبنائك!! ويجب عليك أيضا أن تعلم علم اليقين التام، أن دَوْرَ هٰذا المدرس، لا يخرج عن إطار إعطاء الدرس، أو إعطاء الواجب للطلاب، وما على هؤلاء الطلاب المساكين، إلا أن يأتوا إلى

المدرسة، وقد حفظ كل واحد درسه، عن ظهر غيب وإذا لم يكن كذلك فإنك ستثير في هٰذه الحالة سُخْط هٰذا المدرس وتقيم ثائرته وثرثرته عليك عند كل زملائه المدرسين، إلى أن تصل إلى أُذنيْك الاحتجاجات ويختتمها أخيرا بالتهديدات، التي لا تخرج عن أمرين: إمَّا الرسوب، وإمَّا الطَّرد من المدرسة!!.

لا اريد هنا أن أدخل في مواضيع أخرى، تثنينا عن موضوعنا الأصلي، فمجموعات المدرِّسين هٰذه، تتخصص كل مجموعة منها في أمر ما تقضي فيه وقتها، فمثلا كانت مجموعات لعب الورق مثلا، تُشِّكل الأغلبية العظمى من بين المجموعات الأخرى، إلا أن الأمر قد أصبح يضمحل بالنسبة لها وأخذ أفرادها يوما بعد يوم، ينفصلون عن مجموعاتهم، ليلتحقوا بمجموعات أخرى، تهتم بالموضوعات الدينية، فقد تجد أن هٰذه المجموعات الدينية قد أخذت تشكل حَيِّزاً كبيرا من مجموعات المدرِّسين، ولم تستطع هٰذه المجموعات النشوء أو التكوين لولا ذلك الصراع الناشيء، أو الدائر حتى الآن، بين تلك المجموعات التَّقليدية، وبين هٰذه المجموعات التي نهجت الحياة الدينية في اجتماعاتها. وقبل أن أدخل في تفاصيل هٰذه الجماعات، فإنني أرى أن أُذَكِّر القراء الكرام، أن العلاقة الاجتماعية لم تنفصم بين هٰذه المجموعات، وذلك على الرغم من عظم ذلك الصراع، الذي تمَّت الإشارة إليه قبل قليل!! فهذه المجموعات على الرغم من اختلافاتها في الأساليب والآراء والمعتقدات الخاصة، في شؤون

الحياة، وليس الـدِّين كمـا يتصـور البعض، فالـدِّين ثابت لدى الجميع، ولكن اختلافات وُجُهات النظر في الأساليب الدينية، هي أساس الأختلاف وعلى الرغم من هٰذه الخلافات بين كل مجموعة وأخرى، إلا أننا قد نستطيع القول، أن حبائل الود والاشتراك في نفس المهنـة، التي هي بالتـالي لهـا نفس إفـرازات المشـاكـل والهموم، على كل فرد منهم، فإنه من هٰذا المنطلق، تظل قنوات الاتصـال قائمـة وهم بدورهم، يقـومون بتكليف شخص معتدل منهم، بالاتصـال بالمجمـوعـات الأخـرى، وهٰـذه المجموعـة أيضـاً تكلِّف مندوباً معتدلا، بالاتصال بالمجموعات الأخرى، وهكـذا فإنك ترى هٰذه الشريحة الاجتماعية في علاقاتها تربطها همـوم ومشـاكـل مشتـركة فهي تتوَحَّدُ إذن، إزاء كل هٰذه الوقائع والأمـور، وتـراهـا أيضـا تتوحَّدُ صفا واحداً متلاحما، في جميع خصـائص مجمـوعـاتها وتكويناتها في وجه مجموعات الاغتراب الأخرى، التي هي خارجة عن نطاق مهنتها والذين يشكلون أقليات مترامية مُشَتَّتة، وهم في غالبيتهم، من أصحاب المهن المختلفة سواء التي تعمـل في القـطاع الخـاص أو العـام، ومجمـوعـات المـدرسين هؤلاء لا تكاد تتعامل مع أفراد المهن الأخرى تعاملا كاملا من جميع الوجوه، فهم ينظرون إلى مهنتهم، نظرة مقدَّسة، تعلو على كل المهن الأخـرى، وهم ما زالـوا متمسكين بقـول الشاعر، الذي قال في السابق:

قُمْ للمعلم وَفِّهِ التَّبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

إذن فمجتمع المدرسين هٰذا، مجتمع تسوده الغرابة، وتكمنُ في أرجائه الدهشة، وأرجو أن لا يُفْهَمَ من ذلك، أن هٰذا يُشَكِّلُ تحاملاً على هٰذه الفئة أو غيرها من الفئات، التي سبق الحديث عنها. إنَّ جُلَّ ما أهدف وأصبو إليه هو أن أصل إلى أقصى غايات الأمور، وأبعدها صِدقاً، نجولُ في أركانها، ونطوف في أرجائها، نبحث عن الحقائق ودقائق الأمور، ومن ثم نُجسِّمُها عن طريق التفاصيل، لا نبغي النَّيْلَ من أحد وإنما الحقيقة هي التي نبغيها وحدها دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ، ولعلَّ أحد القراء يتساءل ويقول: لماذا يجول كل حديثك عن مجتمع الاغتراب، حول القتامات والسَّلبيات ولم تتطرق إلى الحديث، عن فَيْضِ الإيجابيات؟!.

أَظُنُّ أنْ جوابا على سؤال كهذا، هو في غاية الاتِّسام والوضوح، فمجتمع الاغتراب هٰذا، لو جئنا نتفحصه ظهراً على بطن، ورأساً على قدمين، لما وجدنا تلك الفيضيات من الإيجابيات، التي يتوهمها البعض، حتى ذلك التوهُّم المادي الذي ننسج حوله الخيالات، ليس حقيقياً، بالشكل الذي نتصوره، ولعلِّي في مواضع قادمة إنْ شاء الله، سَآتي على ذكر مثل هٰذه الأمور، وَأُفَصِّلها بشكل أَوْسَع وَأَجْلىٰ، حتى يتمكن القارىء، أن يمحو عن نفسه، ذلك التصوّر الذي جَلَبَهُ إليه المغترب نفسه، وسآتي إن شاء الله على ذكر فوائد الاغتراب ومضارّه، وسنجيب أيضا على سؤالنا هٰذا بطريقة واسعة وشاملة، وإن ما أَرْسمه عن مجتمع المدرِّسين هٰذا، وما نطلبه هو أن يَكُفَّ هؤلاء خاصة في بلاد الاغتراب عن الأخذ ببعض التصوُّرات، التي تخيَّلوا أنها

تميُّزهُم عن غيرهم من المهن والوظائف الأخرى، أو أن يتنازلوا عن هٰذا (الأنا) المتضخّم في نفوسهم، كي يعلموا عِلْم اليقين، أنَّ كلَّ صاحب مهنة هو سيد لمهنته، وهو بواسطتها، يؤدي خدمة إنسانية جليلة لمجتمعه، وليست الخدمة فقط في مجال التِّجوال بين الصفوف وزجر الطلاب ونهرهم. وإدخال مادة الدرس في داخل أذهانهم. لقد رأيت أن إنغلاق هٰذه الشريحة الاجتماعية على نفسها ولا أعتقد أنها تمارس نفس هٰذا الأمر في بلدها الأصلي، لأنها في بلادها، لا بد وأن تذوب في داخل المجتمع الكبير فهي صادرة منه وتعود إليه، فإذن لا تستطيع أن تطفو على سطحه، كما تطفو في عالم الاغتراب، فأيّ صاحب مهنة، هو أيضا يعتز بمهنته، وَيُكْبِرهُا في عينيه، ولكن لا تصل الأمور أن ينغلق أصحاب المهن على أنفسهم ويُشكل كل أصحاب مهنة، رابطة أو جمعية تفصلهم عن مجتمعهم الأصلي، وإذا تَمَّ الأمر على هٰذا، فإنني أعتقد أنَّ مجتمعاً كهذا، ستسوده الطبقيّات والأفضليّات، ثم يصبح مجتمعاً مفككًا، تنفصل فيه كل رابطة عن أختها.

إنَّ ما أدعو إليه هو أن لا يفهم منه، إلغاءُ هٰذه الرَّوابط أو الجمعيات وإنما هو العمل على إنشائها وتكوينها، ولكن بشرط أن تكون، دائما وأبدا، من أجل خدمة المجتمع، ونافذة تُطِلُّ منها على الرَّوابط الأخرى، لا أن تنهج في أسلوبها تَميُّزاً طبقيا، وتغلق النوافذ حتى تكاد تنفصل عن باقي شرائح المجتمع الأخرى، ولا يجب أن يشعر أفرادها أنهم يتميَّزون في فوائد مهنتهم عن باقي أصحاب المهن الأخرى، وأن ما أقوله بالنسبة لمجتمع المدرِّسين،

يجب أن ينطبق أيضا، على مجتمع الأطباء والمهندسين وباقي المهن الأخرى، وإنني حينما أتوجه بهذا القوْل، إلى القارىء الكريم، فإنه قد تحضرني نظرة تفحُّص، استمدها أحيانا من الماضي القديم، وذلك حينما كنت في مطلع سِنِّ الشباب، فقد كنت أذكر أن ممن هم حازوا على قَدَرِ كافٍ من التعليم في ذلك الوقت، وفي طبيعة الحال، كانوا أكبر منيٍّ سنا، إلا أن شيئا ما، ما زال يعيش في ذاكرتي وذلك على الرَّغم من مُضِيِّ الوقت الطَّويل، فقد ما زلت أذكر أن عدداً من هؤلاء الشباب، في قريتي، وفي قرى أخرى مجاورة يتوقفون عن العمل في الأرض، ومساعدة والديهم، وذلك منذ أن يحصل أحدهم على الشهادة الابتدائية أو الاعدادية!! . فقد كان والده يشجعه، على عدم الذهاب إلى الأرض، ومساعدته في يوم حراثتها وزراعتها، وما زلت أذكر ذلك النَّوع من الشباب، الذي كان يركن لتوجيهات والده أو والدته، ويعبِّئونَهُ منذ أول يوم، يحس فيه على النهوض وقوة الجناح على أن يترك أمور الأرض جانبا وينتبه فقط إلى دراسته!!، وفي حقيقة الأمر فإن هٰذا كان يُدخل البهجة والسرور على الولد الشاب، ويعتقد منذ أول يوم من مطلع شبابه أنه لم يُخْلَق للأرض، ولا للفلاحة!! وإنما خَلَقَهُ الله عزَّ وجَلّ من أجل الدراسة وتحصيل الوظيفة! فيركن صاحبنا الشاب، في تلك الزاوية التي أَقْعَدَهُ فيها والداه ليستريح، ويستريح ويصبح همُّه الأول والوحيد هو التبختر في شوارع قريته، وحراثة هٰذه الشوارع، مجيئة وذهابا يرتدي بنطلونا وقميصا جديدين، ويمشط شعر رأسه بطريقة يعمل في

مقـدمته سلالم وأدْراج، وقد تجد البعض منهم أحيانا، يكثر من سكب زيت الزيتون على شعر ذلك الرأس، حتى تكاد ترى، نُقَطَ الزَّيت وهي تتقاطر الواحدة تلو الأخرى على جبين ذلك الشاب، ثم يذهب إلى أقـرب دكـان، ويشتـرى لنفسه سلسلة في طَرفها موسى، ليمارس حُبَّهُ وغرامَهُ مع فتيات القرية، على حسب تلك العادة المتبعة، في ذلك الوقت، ثم تراه يمشي رائحا وغاديا أمام شباك بيتها، يُلَوِّحُ لها بالسلسلة والموسى!! إلى أن يَطْلَعَ عليه أحدُ إخوانها، أو أقاربها، فيشتبك معهم في عراك واشتباك قائم على المدِّ والجزر، إلى أن يشجَّ أحدهما رأس الآخر، وتبدأ بعد ذلك رحلة التشـاكي في مراكـز الشرطة، أوأن يعملواعلى إنهاءذلك الصراع عند مختار القرية!! ثم بعد أن تنتهي هٰذه الأمور على خير وبركة، وينجح صاحبنا المتعلم هٰذا في امتحان «المَتْرِك»، فما يكون من والده إلا أن يقيم الحفلات تلو الحفلات ويدعو إليها كل من يعرف ولا يعـرف، ويقوم بتوزيع المشروبات والدخان، ويبعثر الحلوى على رؤوس الحاضرين، ويرمي بعلب الدخان ويبعثر كميات كبيرة من السجائر تحت أرجلهم ونعالهم!! فما يكون لهذا الشاب إلا وأن يظهـر مكافأته لوالده، وهي مكافأة النِّد للنِّد، ومكافأة العيْن للعيْن، فمـا يكـون منـه، إلا وأن يعلن لوالده أمام ذلك الحفل الكريم، وأمام أعيانه ووجهائه الكرام، فيقول له: «منذ هٰذا اليوم، لا تذهبْ يا والدي لحراثة الأرض وزراعتها بعد الآن، فابنُكَ البارّ بك هٰذا الذي يجلس أمامك سوف لن ينساك أبدا، وسيعطيك كل مرتبه، حتى تستطيع أن تعيش حياة العـزّ والرفاهية!!»، حين ذلك

تتمايل رؤوس الحاضرين، عند سماع هٰذا القول، ويقولون بصوت واحد: «هكذا الأبناء وإلا فلا!!» ويطرب الوالد بدوْره عند سماع هٰذا الكلام من إبنه الشاب ومن الحاضرين ويتمايل طَرَباً، يُثْني بعطفيه على هٰذه الجهة أو تلك، ثم يذهب في اليوم التالي، إلى أقرب خيّاط في المدينة، فيخيط لنفسه «قمبازا» ويبتاع كوفية وعقالاً، يتناسبان مع لوْن القمبازا! ثم بعد بضعة أيام، تراه يلبسه ويدور في شوارع القرية، من دكان إلى دكان ومن قُصَّةٍ[1] إلى قُصَّةٍ، ثم بعد مدة، تراه قد تحوَّل من إنسان ممشوق القوام، نحيف الجسم، إلى صاحب كَرْش مترهل الجسم، ثم إذا ذهبت إلى أرضه بعد بضعة شهور، فإنك سترى القوص[2]، والأعشاب الضارة، قد امتلأت بها تلك الأرض، وزحفتْ إلى جذوع أشجار التين والعنب واللوز وغيرها من الأشجار. وأخيراً وبعد سنة أو سنتين، فإنك سترى أن كل هٰذه الأشجار، التي كانت يانعة مخضرة قد اصفرت وذبلت! ومن ثم يبست، وأصبحت طعاما شهيا للنيران!!.

---

(١) القُصَّة: بضم القاف، هي عبارة عن قطعة من الحجر مستطيلة الحجم، يبلغ طولها حوالي مترين، وعرضها نصف متر تقريبا، وسمكها حوالي متر واحد أو أقل من هٰذا بقليل، توضع عادة في شوارع القرية، خاصة أمام الدكاكين وأمام البيوت، يجلس عليها الناس للسَّمر والحديث ورواية القصص، وقد يلاحظ بأن اسمها قد أُخِذَ من هٰذه الناحية، وهي متواجدة في قرى الضفة الغربية في فلسطين.

(٢) القُوص: هو عبارة عن نبتة شَوْكية، يصل ارتفاعها إلى نصف متر تقريبا، تحمل أغصانها الصغيرة أزهارا صفراء، تشبه أزهار العُصْفُرْ.

فلو أننا حاولنا الدخول في تحقيق مع قضية كهذه، فعلى من نلقي اللوم على الوالد أمْ على الشاب المتعلِّم؟!. أظن أن الوالد في قضية كهذه، يجب أن يتحمل القسط الأكبر من اللوم، وكذلك العقاب أن وُجِد لأنه قد خلق من إبنه رجلاً منفصلاً عن المجتمع، منفصـلاً عن أرضه، وأخيراً منفصلاً عن أبويه. إن (الأنا) الذي خَزَّنَـهُ الأب في نفس إبنه الشاب، وكذلك أقرباؤه من حوله، قد حَوَّله من شخص عادي مندمج في مجتمعه، مندمج مع أقربائِه، مُحِبّ لأرضـه، يقـرن العلم بحب كل هٰذه الأشياء المرتبطة من حوله، ومنْ ثَمَّ يُسَخِّر عِلمه على خَلْقِ مستوىً أفضل من التكامل الاجتمـاعي بين هٰذه الأشياء كلهـا، لقد حَوَّله والـده إلى إنسان إنفصـالي، متكبِّـر، متزمت مُتَرهِّل، كسول، كثير الأشمئزاز من غيره، يتـعــالى على كل ما يحيط به من حولــه من أشخـــاص ومـوجـودات أُخـرى!!. ولقد رأيت نماذج كثيرة من هٰذه الأطوار وأضرب مثلا على إحدى هٰذه النَّماذج، أحدُ الأشخاص الذي قد حصل على شيء من التعلم عن باقي أفراد عائلته، وبما أنه قد تميَّزَ عن باقي إخوته بهذه الميزة، فإن والدته وعدداً آخر من أفراد عائلته، قد ظَلُّوا ينفخونَ في جوفه، ويطبِّلون في أُذُنيه إذا قام، وَيُزَمِّرون له إذا قَعَد، حتى أنه قد أخذ يترفع على كل شيء يحيط من حوله، فوصلت به الحـال، إلى أنْ هَجَـرَ البيت الذي كان يقيم فيه مع أَبَوَيْه، وأصبح لا يجلس ولا ينام، إلا في دار اخته التي ساهمت هي الأخـرى أكبـر مسـاهمة في نفخه وفي كثرة التَّزمير والتطبيل له!!، ممـا أدى بالتـالي إلى أن اتخـذ له من الصَّلَف والغـرور

عنوانا!!، ومن الكِبْر والخيلاء له حِجابا، يَحْجُبُهُ عن أقرب المقرَّبين إليه!!، وقد بَقِيَتْ القطيعة بينه وبين عدد كبير من أقربائه مقطوعة إلى يومنا هٰذا، لا أحد يطيق تصرُّفاته تلك، ولا تقمُّصاته التي يحاول بها أن يحاكي غيره من الناس الذين هم أعلى منه رِفعة وأسمى عِلْماً!! ولكن هيهات للإنسان أن يعقل نتائج التمييز التي تؤدي إلى انفصام عُرى التواثق بين الأقرباء، ثم بالتالي إلى تفكك أفراد المجتمع.

وإنني حينما أسوق هٰذا المثال، أو أمثلة أخرى مشابهة، فإنني قد أُريد أن أُدَ لِّلَ بها على النقطة التي سبقت الإشارة إليها، وهي أنَّ هؤلاء المدرِّسين الذين يعملون في بلاد الاغتراب، يصنعون من مجموعاتهم التي يكوِّنونها، مجتمعا متخلخلا وليس متماسكا بين كل الفئات العاملة في بلاد الاغتراب. إنَّ هٰذه المجموعات ـ كما سبق، وأن قلنا ـ هي مجموعات متعدِّدة الهوايات والأهداف، فمنها مجموعات قد أخذت الطابع الديني المُتزمِّت عنوانا لها، وأخذت بواسطته، تقذف في فلان وعلان، وَتُكَفِّرُ هٰذا وَتُدْخِلُه النار، وتغفرُ لهذا وَتُدْخله الجنة!!.

وهناك مجموعات همها الوحيد لعب الورق ومجموعات أخرى تأخذ طابع الاجتماعات والمداولات في شتى وقائع الأمور، إذن فهذه التَّعددية في التصرُّف والأساليب، قد خلق نوعا من المشاحنات المستمرة بين هٰذه المجموعات بعضها ببعض، ونظراً لهذا الشعور فإنه لا شك ستولد معه حالة أخرى من التفكك

بين جاليات المغتربين!!، وسبب هٰذا التفكك والاختلاف يرجع إلى هٰذا الشعـور (الأنوي)، الذي يُضَخِّم صاحبه، وذلك تماما مثلما يحصل لأي إنسان آخر، ليس شرطا أساسياً أن يكون مدرِّسا، وإنما الشرط أن تتوافر الصفات الأخرى التي تساعد على إنماء روح ذلك التمايز في نفس صاحبها، وذلك تماما مثلما حدث بالنسبة لأصحاب الأمثلة التي سُقناها قبل قليل، أو أولئك الشباب الذين كانوا يَنْحسرون عن المساهمة في زراعة الأرض وفلاحتها، حينما يُحَصِّلون لأنفسهم بعض التعليم، حيث إنني ما زلت أرى منهم نمـاذج حتى يومنـا هٰذا، وقـد أفنى الـزمان روح الشّباب فيهم، وانحسر طول ذلك الشعر الأسود المتدرج الذي كان يتدلّى على جباههم ثم ذبلت تلك النضارة في وجوههم، فتحولت إلى أخاديد مرسومة، قد حفرها الزمان بحدِّه، لكي تبقى مقولة: «لا غالب إلاّ الله» هي الأقوى، التي ستظل تَطنُّ في الآذان، وتقرع في داخل النفوس، التي تجرفها عنجهية التمايز البّراق الذي يخدع صاحبه، فَيجرفُهُ عن مسيرة الشعور الإنساني الذي يجب أن تتوحَّد كلها في شعور واحد مندمج أصيل، لا أن تسوده تلك الرغبات والنزعات الشريرة، التي تذهب باصحابها بعيداً عن جادة الحق والصواب!.

إذن، حينمـا نريد أن نُنهي حديثنـا حول علاقـة المغتـرب بالمغتـرب الآخر، نجد أنَّ علاقة المغترب بالمغترب الآخر، قد تسودها كثيرا من التشاحنات، ويتداخل فيها الحسد، وأنواع أخرى من الكـراهية بين مغترب ومغترب آخر من جنسية أخرى، وليس

يُفهم من ذلك أنَّ كل هٰذه الجاليات تتصارع فيما بينها، ولكن سبق شرح هٰذا الموضوع بشكل تفصيلي في الصفحات السابقة، كذلك فإننا قد نستطيع القول أن أبناء الجالية الواحدة أيضا، يسود التَّحاسد والخلاف بين أنماط مختلفة في صفوفهم، وذلك على الرَّغم من أننا قد نجد أواصر الاتصال والمزاورة والاجتماعات قائمة فيما بينهم! : إلَّا أنَّ هٰذا يُعتبر في نظري ظاهراً وليس ذلك الباطن الذي ينوءُ بما يحويه من كراهية مكبوتة جداً، لا يريد صاحبها أن يظهرها لِغَيره لأنه لا يريد أن يفتح على نفسه جبهة أُخرى يُعاني منها، فيكفيه عناء الاغتراب ومعاناته الأخرى من اضطهاد أهالي البلاد له، وازدرائهم لأي سلوك، أو تصرُّف يُعبِّر فيه عن شخصيته!!. إذن يجب عليه أن يتحمل ويتحامل على نفسه، ويجامل غيره سواء من أفراد جاليته، أو أفراد الجاليات الأخرى، وذلك كي تبقى العَجَلَة سائرة إلى الأمام، ولكي لا ينوء ظهره بحمل هٰذه الأثقال كلها، إنْ هو قد أراد التصدِّي لها، أو فتح باب التَّحدي لمجابهتها، فيكفيه أن يبقى في موقف سلْبي صامت، يسمع ولا يرى، ويرى ولا يتكلم، تَرِنُّ في أُذنيه الشتائم، فيحاول جاهدا أن يقنع نفسه أنَّها مَدْحٌ، وتشريفٌ له!!، وهكذا يريد بالعَجَلَةِ أن تستمرّ!!، وللاغتراب أن يبقى وللدّرهم أن يجري بين يديه!!.

حدثني أحد المغتربين، قال: كانت تربطنا بإحدى عائلات المغتربين قبل عشر سنوات تقريبا علاقات ودية حميمة ووثيقة جدا، وقد حدث أن كانت تلك العائلة قادمة على شكل إعارة،

فانقضت مدة هٰذه الإعـارة ومـدتهـا تتراوح من أربع إلى خمس سنـوات، ونحن نتزاور فيما بيننا يوميا، وقد دخلت صداقتنا فيما بيننا، في إطار من الصفاء والإخاء، لدرجة أن قد حذفنا كل أنواع الرّسميات، التي تقف عادة حاجزا قويا في طريق الصداقات القوية والمتينة، وبعد أن أنهت عائلة صديقنا مدتها، وعادت إلى موطنها، أخذَتْ تبعث لنا على لسان ربّ العائلة وزوجته برسائل يدعوننا فيها بإلحـاح لقضاء فترة من الوقت عندهم، وَحَدَثَ أَنْ كنّا ذات مرة ذاهبين في إحدى الإجازات وقررنا الذّهاب إلى تلك العائلة وقضاء يومين أو ثلاثة عندها، على أمل أن نُسافر بعد هٰذه المدَّة إلى بلد آخر كنّا ننتظر زيارته، وقد أحتطنا للأمر وأعدَدْنا له عُدَّته، وَحَمَّلنا أنفسنـا بالهـدايا، وسـرنـا على بركة الله إلى بيت ذلك الصديق الحميم، فاستقبلونـا أول يوم، ونمنا تلك الليلة، وفي الصباح، ذهبت إلى بيت صديق آخـر، كان يسكن في نفس المنطقة كي أحضر بعض اللوازم الخاصة بي من عنده، وقد كان صديقي الذي نزلت عنده، يعلم أنني في ذلك الصّباح سأزور ذلك الصّديق، فما كان منه إلا أن بَكَّرَ في الخروج من البيت بحُجَّةِ أنه سيشتري بعض لوازم الفطور لنا، فانتظرتُهُ طويلا، حتى أصْطَحِبُهُ معي لبيت ذلك الصّديق، ولكنّه لم يَعُدْ، فقررت الذهاب بنفسي منفرداً إلى بيت ذلك الصّديق، وحينما وصلت إليه، ناولني ورقة من صديقي الذي أقيم عنده يقول لي فيها: «حاوِلْ يا صديقي أن تَرْحَلَ عنا، فَبَيْتُنا من الضِّيق، بحيث لا يَتّسع لأفراد أُسرتَيْن معاً!!»، . ويتابع هٰذا الرَّجل حديثه لي قائلا بحزن وأسى: «ربما ظَنَنْتَ أن بيت هٰذا

الصـديق، هو فعلا بالغ الضّيق، ولكن هل تعلَمْ أنه يتكون من طابقين، وإنَّ طابقه العلوي غير مسكون!!.

وهناك قصة أخرى لأحدهم، حيث قال لي: كنت على علاقة وثيقة جدا بصديق لي، كنا نعمل سويا في إحدى القرى البعيدة في بلاد الاغتراب، وتابع حديثه لي قائلا: : وأنت تعرف مدى ما تصل إليه العـلاقـة من تماسك قوي، حينما تتكوّن مثلا، في قرية أو هِجْرةٍ مَنْسية ومنفيَّة، في إحدى أطراف الصحراء، فقد صبرنا على الحُلْو والمُرّ معاً، وتحمَّلْنا جَلَدَ الصَّحراء وقسوتها معاً، وقد ظننت إزاء ذَلك أنَّ الصَّداقة قد أخذت حَيّزاً مُتَّسعاً فيما بيننا، وقد حَدَثَ وأن انتقلتُ من تلك القــرية أو الهجـرة، إلى بَلْدةٍ بعيدة جدا، وامتدت بنا الأيام ولم نتمكن من مشاهدة بعضنا البعض، إلا في أثناء الإجازة السَّنوية، فَعَلِمْتُ أنه قد ابْتَنى بيتاً فخماً وواسعاً، وبما أنني لا أملك بيتاً أسكن فيه أثناء الإجازة، فقد كنت أتنقل من بيت إلى آخر، ومن فندق إلى آخر، ومن بلد إلى بلد آخر، حتى أقضي إجـازتي كلها، وقد حَدَثَ أنَّ إحدى قريباتي المقرَّبةُ منيٍّ جدا، وهي عبارة عن عَمَّةٍ لي، قد أصبحت تضج عَلَناً من وجودي في بيتها الفارغ من السُّكان إلا منها فقط، فقرَّرْتُ في ليلة ما، أن أزور ذلك الصَّديق الحميم، لأُقيم عنده تلك اللَّيلة، وركبْتُ سيارتي عند السَّاعة العاشرة ليلاً فوصلت إليه عند الساعة الحادية عشرة، وحينمـا قرعْتُ باب بيت ذلـك الصَّديق، استقبلني هو وزوجته، وجلسْتُ مدةَ ساعةٍ من الزّمن، حينما أصبحت الساعة الثانية عشرة

عنـد منتصف الليل، فبـادَرَتْ زوجتـهُ قائلة: «لأُحْضِرَ لك طعام العشاء!!»، فقلت: «ألا يوجدُ أحد حتى هٰذا الوقت المتأخر من الليل بدون عشاء!!»، فألحّتْ عَلَيَّ تلك المرأة في السُّؤال، وقد علِمَتْ في داخل نفسها، أنني لم أتكلم الحقيقة، وإنَّها قد كانت صائبة في حدسها!! فقد كنت جائعا مُتْعبا مُنْهَكاً، حتى أنني لم أذق طعم النـوم منذ مدة عند عمتي!!، وحينما رأى زوجُها شدة ذلك الإلحاح منها، لإحضار الطعام لي، قال لها: «إنَّ فلانا هٰذا ليس ضيفـاً، ولهذا فيجب أن لا نعامله بالرَّسميات!!». وتابع ذلك الرجل حديثه متنهدا: «لقد كتمتُ ذلك في نفسي، وقلت: لقد ضاع العشاء، والآن أُريد أن أَجسَّ نَبْضَ صديقي لاتَيَقَّنَ منه، هل هو عازم على استضافتي للمبيت في بيته هٰذه الليلة أم لا؟!! فتحرَّكتُ من مقعدي قليلاً، وقلت: «لقد تأَخَّرَ الوقت، أَستأْذنكم في الـرَّحيل!!، فَتَدَخَّلْتِ الزوجة قائلة: «إذن فأنتَ قادم للزيارة فقط!! لا للمـبيت!!». فقلت: لقـد جئت للزيارة فقط!!. قالت: ولكنَّ الـوقتَ قد أصبـح متـأخـراً جداً، والمكـان الـذي ستقصده بعيد أيضا!! فقلت: ليس على السيارة طريق طويل!! وحينما هَمَمْتُ بالقيام من مقعدي، قالت لزوجها الذي لم يتدخل في هٰذا الحوار مطلقاً: تَكَلَّمْ معه يا فلان، إِثْنِهِ عن عزْمه!!، إنَّ بيتنا واسع، فَأَقْنِعْهُ بالمبيت!!، فقال الزَّوج: يا فلانة: إنَّ فلاناً هٰذا ليس ضيفاً، ولن اتعامل معه بالرَّسميات، هو حُرٌّ يا أمرأة، إنْ أرادَ أن يَبْقى، فَلْيَبْقَ!! وإنْ أراد الرَّحيل فمع السَّلامة!!.

قال مُحدِّثي : وهنا أظْلمت الدنيا في وجهي وقمت من مقعدي مذعورا ، عازما على الرَّحيل ، دون أدنى تريُّث!! فقمت وخرجت ، لا ألْوي على مكان أقضي فيه ليلتي ، فقررت عدم الرّجوع ، إلى بيت عمّتي وذلك لأنّها ضَجَّتْ من إقامتي في بيتها مثلما قلت لك!! فكيف بي لو ذهبت أدق بابها في هٰذه السّاعة المتأخرة من الليل ، إذنْ لو فعلتُ ذلك ، لَضَرَبَتْ رأسي بأقرب عصا ، أو مطرقة تصل إليها يدها!! ، فقررت من تلقاء نفسي بأن أبيتَ في إحدى الفنادق!! وتابع حديثه بتحسُّر: «وأنت تعرف الفنادق في الصَّيف إنها مكتظة جداً بالنُّزلاء ، وبقيتُ قسماً كبيراً من تلك الليلة ، وأنا أمُرُّ من فندق إلى فندق آخر ، فلم أعْثَرْ على مكان ، إلّا بعد أن بقي من الليل رُبعه فقط ، فَتَكومّت على ذلك السّرير ، كَكَوْمَةٍ من الخِرَقِ البالية ، ووضعتُ رأسي على الوسادة ، وأحشاءُ بطني تنْخُزني بين اللحظة والأخرى تطلب طعاما مني هي الأخرى!! ، ولكن عيناي تحثّان أحشائي على عدم مطالبتي بالطعام لأنهما تريدان الأغفاء لشدة سهرهما ، وما كان من عيناي إلا أن غَلَبَتْ على أحشائي ، على الرَّغم من شدة احتجاجهما الشّديد!! ، فغفوْتُ على الرَّغم من ذلك الصراع الدائر بينهما غفوة أخذتني إلى ظهر اليوم التّالي! .

إذن ، هٰذه هي علاقة المغترب بزميله المغترب من نفس جنسيته ، رأينا في القصص السابقة ، مدى ضعف هٰذه العلاقة وتهافتها!! ، وإذا كان الأمر كذلك بين أبناء الجالية الواحدة ، فكيف به مع أبناء الجنسيات المختلفة ، خاصة تلك الجنسيات

التي تحـاول دَوْمـا أن تخلق حالـة من التـوتـر والإستفـزاز لأبناء الجـاليات المنافسة لها؟! ، وتحاول في نفس الوقت الإيقاع بها وَنَصْبِ الشِّـراك لها!! ، مُحاولة استغلال ذلك الدَّعم الذي يُقَدَّمُ لها، من جَرَّاء تَأْثير هبوب الرياح السياسية إلى ناحيتها!! ، فهي في هٰذه الحالة ستحاول أن تفرض نوعا من السيطرة والرقابة أيضا على غيرها من أبناء الجاليات الأخرى، التي تحيا حياة هامشية، إلى جانب ذلك، فإن هناك عاملا حادًّا يفتت كل حالات الاستقرار في حياتهـا، ألا وهو هبوب العواصف السياسية التي تزرع حالة كبيرة من الفوضى داخل نفوسها!! .

ومـع ذلك، فإن لكل شيء حدود، ولكل نفس طاقة خاصة بها، فهل إذن يستطيع هٰذا المغترب أن يتحمَّل كل هٰذه الأحمال الثِّقـال التي تتراكم على كاهله يوما بعد يوم!! ، وإذا لـم يستطع إيقافها، فكيف إذن يجب عليه أن يتصرف!! ، هل يترك نفسه تَنْهَدُّ تحت عبء هٰذه الأحمال، أم أنه سيحاول الهرب والفرار عائداً إلى بلاده، وَمُـطَلِّقـاً لِغُربته إلى الأبد!! ، فهل يمكنه أن يفعل فِعْلته هٰذه، ويطلِّق غربته؟!! .

أظنه لن يفعلها من تلقاء نفسه مُطْلقا!! ، لأنه قد أدْمَنَ على البقاء وقد عقد النيَّة أيضا، على استمرارية زواجه من الغربة!! . فهي إذن بالنسبـة له تلك الـزَّوجة المدهونةُ بذلك الطِّلاء اللاَّمع البَّراق الذي يجذبه إليها، تحت تأثير سِحْر جمالها المادي، الذي يُغْريه دَوْماً بإن يبقى راسخا في أحضانها!! ، دون أن تُحدِّثُهُ نفسه

يوما، بأن يكشف النِّقاب، عن ما يَسْتَتِرُ من قُبْحٍ وَتَشويهِ تحت ذلك الطِّلاء!!. إذن هو لا يستطيع تحت هٰذا الإغراء أن يُقْدِمَ على تطليق غربته، إلا إذا هي رَغِبَتْ، وَأَعادَتْهُ إلى أحضان أُمِّه «الوطن»!!.

علاقة المغترب بذويه وبمواطنيه

تَحدَّثنا في الفصْلين السَّابقين عن علاقتيْن للمغترب، هُما: علاقة المغترب بمواطني أهالي البلاد الذين يَحِلُّ بينهم في بلاد الاغتراب والعلاقة الثانية: هي علاقة المغترب بالمغتربين الآخرين، والآن سنحاول إنْ شاء الله أن نتعرَّف على علاقة المغترب بين أقربائه ومواطنيه، حينما يعودُ إليهم ضيفاً في أثناء إجازته، وكذلك سنحاول في نفس الوقت الكشف عن كثير من أنْماط سلوكه وَأنْواعَ مختلفةٍ من تصرُّفاته.

قلنا في أحد المواضيع السابقة، أنّ سلوك المغترب، وتصرُّفاته في البلد الذي يَحِلُّ فيه، تكاد تَغلبُ عليها أنماط متعددة من صفات الحذر والخوف والحيطة وشدة الترقُّب، فهو مراقب ومحاسب على كل بادرة أو تصرف يصدر عنه، سواء كانت صادرة عن حسن نية، أو عن قصد أو سوء نية، وقد سبق وأن أسهبنا في تفصيل مثل هٰذه الأمور، في أحد فصولنا السابقة حيث استطعنا فيها التعرُّف على نفسية المغترب في بلاد الاغتراب، فهي نستطيع أن نجملها بأنها نفسية ضعيفة خائفة، تكاد نواحي بروز الشخصية تختفي أو تتلاشى أيضا، فهو لا يستطيع مثلاً أن يبدي أيَّة مهارات أخرى له خارجة عن نطاق عمله!!، وهو بالتالي لا يستطيع أن

يكشف عن آفاق علمه ومكنون فكره إنْ كان إنساناً مُطّلعا أو مثقّفاً!!، فهو يخاف أن يقع في المحذور، والوقوع في المحذور أمر سهل جدا، فقد تكون تتكلّم أحيانا في موضوع عاديّ تماما، فترى نفسك وقد نُبِّهْتَ من أحد الجالسين بأنك قد وقعْتَ في خطأ جسيم، كأنْ تكون قد تورطت في ورطة مشينة للدِّين أو للسياسة، أو إذا كان حديثك علميا، فمن الممكن أن يؤخذ على أساس أن فيه عملية غمز وهمز وتحريض!!، أو النيل أو الإساءة لأحد!!، وما أكثر هٰذه الأمور التي هي كالشُّباك تترامى وتتحلّق من حولك، ومن السَّهل أن يدفعك أي إنسان يريد الإيقاع بك في وسطها!! وحينها ستتورط في ورطة في يوم لا ينفع فيه الندم!!، لأنك قد حَرّكت لسانك على عواهنه، ولم تضبطه ضبطاً محكما، أو أنك تعمل على إيقافه عن الحركة ليصمت!!، فالصّمت كما يقولون من ذهب!!، ولكن هل للإنسان أن يبقى صامتاً وهل له أن لا ينزلقِ لسانه بطريقة عفوية، غير مقصودة؟!!.

أظن أن الإنسان من طبيعته الخطأ والإنزلاق في اللّسان، وكذلك في الأفعال أيضا!!. فقد تصدر منك أفعالا، هي الأخرى قد تؤذيك!! وما ينطبق على عقاب اللسان، ينطبق أيضا على عقاب الأفعال!!، بل من الممكن أن تكون أشد قسوة، ولو كانت بسيطة وغير مقصودة!!.

وكما قلنا قبل قليل، فإن مهاراتك التي تمتلكها، وأخص بالذكر الخارجة عن حدود عملك، فإنك لا تستطيع أن تُبديها،

فإبْداء المهارات مثلا أو أيَّة أمور أخرى مشابهة، لها دَوْر كبير، في عملية بروز شخصية الإنسان وشعوره المستمر بتفاعله مع الحياة من حوله، إنه يستطيع بواسطتها أن يُظهر شخصيته المتميِّزة، هٰذه الشخصية التي تصبح جذابة ومرغوبة في المحيط الذي تعمل فيه، وإذا ما حَقَّق الإنسان شخصيته، فإنه يشعر بالتَّالي بكيانه ووجوده، وإذا ما تعطَّلت هٰذه النَّواحي التي تساعد على إبراز وظهور الشَّخصية، فإنه ولا شك ستنطفيء وتلوذ ملاذاً سلبيا في المجتمع الذي تعيش فيه، ثم تغلب عليها مظاهر الإنعزال وشدَّة الانكماش، إلى أن يصبح الإنسان يقتنع من تلقاء نفسه، بأنه يعيش في وسط مجتمع غير مرغوب فيه تماما، وحينما ترن في أُذنيْك كلمات أُخرى: «لو كان فيه خير لَبَقِيَ في بلده!!»، وَ«لو كانت بلاده فيها خير لَبَقِيَ فيها»، وألفاظ أخرى: «هٰذا الأجنبي!!»، وَ«هٰذا الخارجي!!». هٰذا بالإضافة إلى القيود الأخرى التي يجب عليك أن تتقيَّد بها، في أرجلك أولا. فقدماك يجب أن تكونا قليلة الحركة ولا تُكْثرانها، لأنها إن كَثُرَتْ فالشُّكوك إذن ستحوم من حولك، وكذلك لسانك يجب أن تَعْقِدَ عليه رباطاً يَقيهِ من اللَّعب في وسط فيك، حتى لو شتمك أحد، فيجب أن لا تحرِّكه بأخرى مثلها!! يجب عليك أن تبتسم ابتسامة صفراء ثم حمراء ثم ملوَّنة!! حتى توُهِمَ الآخرين أنَّك متسامح وأنَّ «العفو عند المقدرة»، وإنك قد تستطيع الرَّدَّ عليه!!. ولكنك إنسان شهم، مؤدَّب!!، وأنت تتقيَّد بالمقولة التي يقولونها عن الغريب بـ: «أنه يجب عليه أن يكون أديباً». وهكذا تحاول في كل مرة أن

تُداري نفسك بنفسك، وتنتظر من غيرك أن يداروك، ويواسونك في أمر الشَّتيمة التي ضُرِبْتَ بها ظلما وَخَسْفاً!! ولكنْ من أين أنْ تجدَ لك الصَّديق المخلص الذي يواسيك، أو أن يحاول أن يطرد ولو جزءا من الغضب المكبوت الصَّامت والعاجز عن الرَّد بين عينيك!!، وهكذا ومع التَّكرار، المرَّة بعد الأخرى، فإنك قد تجد نفسك وقد أصبحْتَ تمساحاً لا تبالي بكل ما تسمعه وما تراه!!. وترى نفسك المشحونة بالقوَّة والحيوية والنشاط، قد تلاشت هٰذه جميعها، وتعطَّلتْ بِفِعْلٍ نَفْسيّ قد وقع في داخلك، وهو أن هٰذه الأدوات النفسية المزروعة في نفسك ما دمت لا تستطيع استعمالها، ولا داعي أصلاً لوجودها، فإنها قد تميل إلى الهروب وإلى الغياب عنك، فهي موجودة عندك للاستعمال! فغريزة الغضب مثلا تحل محلها غريزةُ الخوف!!. وهٰذه القوَّة يحلُّ بدلاً عنها الضّعف!!، وهٰذه الحيويَّة تَحلُّ محلَّها البَلادة!!. ثم هٰذه كلها تتوالد عنها أمراض الكآبة والخوف والنُّكوص!!. فإذن شخصية كهذه محطَّمة نفسيا، تشوبها كل أنواع الحرمان، وليس الذي أقصده هنا الحرمان من الجوع أو العطش أو المادة، فهٰذه الأمور المادية متوفرة لديك!!، فالسيَّارة يهدر مُحرِّكها تحت نَعْلِكَ اليُمنى كهدير فحلٍ قد بَلَغ سِنَّ الضِّراب!!، وشتىّ أنواع الغذاء متوفرة في بيتك، وثلاجتك تنوءُ بما تحمله من أطعمة مختلفة، وبيتُك يزهو بالأثاث الفاخر وشتى أنواع الكماليات التي لم تحلم باقتنائها طوال سنين حياتك.

إذن، فالحرمان الذي أقصده هو حرمان نفسيّ، وليس حرمانا ماديّا، وهٰذا الحرمان النفسي هو أعظم بكثير من الحرمان المادي، وهو عند العقلاء لا يمكن أن يقاس به، أما عند الذين تستهويهم المادّة فهم من الممكن أن يعدلوا بينهما أو أن يُرَجِّحوا الحرمان الماديّ، على الحرمان النّفسي!!، وعلى أية الأحوال فإنَّ هٰذا المغترب، الذي أمْعَنّا في وصفه في بلاد الاغتراب، وَقَصَدْنا من ذلك أن نُذَكِّرَ القارىء الكريم، تذكيراً بِشَيء من أنواع الهموم والحرمان التي يُقاسيها!!، وحتى يُمكننا مقارنة حاله في بلاد الاغتراب بحاله حينما يعود إلى بلده الأصلي، فإننا لا بدَّ وأن نُلْقي بعض الضوء على حالة هٰذا الإنسان ونُتابع سلوكه وتصرُّفه، حين عَوْدته في إجازة إلى بلده!!. وحينما نريد الخوض في حديث كهذا، فما علينا إلا وأن نرصد تَحَرُّكات هٰذا الإنسان وتصرُّفاته، وذلك منذ أن تَحُطَّ قدماه نقطة الحدود، أو أرض المطار في بلاده، فهو منذ هٰذه اللحظة، تظهر عليه حالات من التغيُّر في اللوْن وفي نبرة المخاطبة، وفي طريقة الأسلوب واللّهجة، ويبدأ وكأنه يُريدُ أنْ يُوهِمَ الآخرين أنه قد جاء من بلاد التّقدم الماديّ والحضاري، وها هي الشواهد على ذلك مقترنة معه، فسيارته الأنيقة، في موديلها وَتَكْييفها أكثر تقدما واتّساعا من السّيارات الأخرى في بلده، والمقتنيات الكمالية ها هو يحملها معه، وهي في مُجملها من البضائع النفيسة التي لا يستطيع أيُّ فرد متوسط الحال في بلده أن يَقْتني مثلها، فهي تحوي مثلاً التّلفزيون الملوَّن، ذو البوصات

الكبيرة، وجهاز الفيديو ذو النظم المتنوعة، وبحوْزته أيضاً كاميرا فيديو باهظة التّكاليف!!، ومعه من الأجهزة الأخرى، التي لم يسمع بها إلاّ مَنْ هم واسعو الثّراء، إذن فهو يحاول منذ البَدء أنْ يُوهم غيره ليتميّزَ عنهم في هٰذا الثّراء وهو في نفس الوقت يُحاول أن يُقْنع نفسه بأنه إنْسان هام، خاصة حينما يرى غيره ينظر إلى بضاعته وَيُلْقي عليها نظرة اهتمام بالغة، فيسارع فوراً إلى تقمص شخصية تتناسب وموقف الحال الجديد الذي أصبح عليه الآن!!، إذن، فمنذ هٰذه اللحظة التي تطأ فيها قَدَماه أرض بلاده، فإنّك تراه ينحو منحىً جديداً قائماً على الأخذ بأمور جديدة لم يكن في بلاد الغربة يعتبرها ذات تأثير كبير على نواحي حياته!!، فأيّةُ إهانة بسيطة، تصدر في حقه الآن، يجب عليه أن يَتَنَمَّرَ لها، وأيه مسألة مُخِلّةٍ حتى ولو بقليل من الكرامة على الرّغم من بساطتها، تبدو وكأنها طعنة نَجْلاء، قد سُدِّدتْ إلى جام قَلْبه!!، وها هو الآن على مركز حدود بلاده، يحتج ويناقش ويثور، ويغضب، وَيُبْدي آراءَهُ وأفكاره، دون تَوَجُّس أو خِيفَة!!، وها أنت تجده وقد استرجع كافة قُواه العاطلة عن العمل، منذ مدة طويلة، وقد أصبحت هٰذه القُوى تتحرك وتفعل فِعْلتَها المُؤَثّرة في داخل كيانه وأجزاء جسمه!! فتجد ذلك الوجه، الذي كان قبل قليل مُصْفَرّاً، وتلك العَيْنان الذابلتان والرأس المُنْحنى، والقامة المُقَوّسة، وقد أصبحت هٰذه جميعها تعمل وتعود إليها حَركاتها الطبيعية، فالوجه المصفَر، قد أصبح مُتَفَتّحا تبدو عليه إمارات الصّرامة والغضب!!، وكذلك الإشمئزاز أيضا، إن رأى أية أفعال أو حركات تبدو وكأنها غريبة بالنّسبة له،

فتراه ينظر إلى ذلك باهتمام بالغ، ويبدأ بِمَطِّ شَفَتَيْهِ من اليمين إلى الشمال، مُدَّعياً الغرابة والدّهشة ثم الوُجوم الشّديد أيضا، نحو هٰذه المظاهر، ويبدو صاحبنا وكأنه قد جاء من كوكب دُرِّيّ، كان يعيش فيه مُنَعَّماً مُتْرفاً، لا يرى فيه إثْما ولا تأثيما!! وأحيانا يزيد من غرابته نحو مُفَتش الجمارك إنْ سَأَلَهُ سُؤالا بسيطا، ماذا في داخل هٰذا الكيس مثلا؟!، فتراه يبدو وكأنّه لم يسمع لا مِنْ قَبْلُ ولا من بَعْدُ بأسئلة أو استفسارات تُنْزِلُ من مقامه الكريم!!.

إذن، أصبحتْ قُوى الرُّوح العاملة، تَدُبُّ في أرجاء ذلك الجسم، فهو كنبتة صفراء، كانت نابتة في وسط الصحراء، تُحرِّكها الرياح الشّديدة، ويعلوها الغبار المتراكم، وتقذفها الرمال القوية، والآن سَكَنَتِ الرِّيح، وتوقَّفتْ الرِّمال عن الحركة، وأصبح الغبار ينزاح تدريجيا عن السّاق والأوراق، وأصبحت المعاني الإنسانية تعود إلى هٰذه القامة اليابسة، ومنْ ثَمَّ تسيرُ ببطء إلى الفروع والشرايين والأجزاء الدّقيقة من هٰذا الجسم. والآن وبعد أنْ أطلّ صاحبنا على محيط المنطقة التي يسكنها، وأصبح يرى بيوت أهل حارته وأُناسها، رَنَا قلبه المتحجِّر اليابس وظهرتْ عليه معالم الشّوْق والحنين لهذا الحيِّ الذي كاد أن ينساه مع هَوَج الغُربة وشدَّة كُرْبتها وَقَسْوتها، فَقَسا قلبه وتحجَّر مع غربته. أما الآن فظهرت بعض معالم اللِّين على هٰذا القلب المتحجِّر، فتدمع عيناه دمعة الفرح، وتظهر كذلك على شَفَتَيْه ابتسامة صفراء باهتة، لم تنطبع كل الإنطباع على وجهه، لأن التّجعدات قد خلقت اكفهراراً رَسَمَتْهُ على ذلك الوجه، فلم تسمح لأية ابتسامة عادية أن تَمُرّ عليه، ولكن

على كل حال، هٰذه أوَّل تجربة تنبُع فيه هٰذه الابتسامة من هٰذا القلب، الذي أصبح يميل إلى اللِّين شيئاً فشيئا، وبعد ذلك فهو مُعَرَّض لتجارب كثيرة سيصادفها بعد قليل، حينما يلتقي مع أهل خِلَّتِهِ وأصدقائه، وستعود لتلك الابتسامة طبيعتها، ولهذا الوجه نضارته وعفويته، وسيعود إليْه لَوْنه، ولتلك العينان نظرتهما الحادَّة المعروفة في وقت الثَّورة والغضب، ونظرتهما الوديعة في وقت الإخاء والمودة!!.

قلنا إذن، إنْ نفسية هٰذا الإنسان تظل واقعة في مدار التَّذبذب وعدم الثَّبات على حال معينة، منذ أن وَطَأت قَدَماه أرض الوطن، فهو عند أرض الحدود، أو المطار تصيبه حُمَّى العنجهية، وحالات أخرى من حُبٍّ الاستعراض، مشوبةٌ بالكِبْر والخَيلاء والتَّرفعٌ، وذلك حتى يُعَوِّضَ صورة الحرمان التي كان عليها قبل أن تطأ قَدَماه أرض الحدود، هٰذه المدة التي عانى فيها طويلا أثناء غيابه، لا بدّ وأن يحاول تعويض ما فاتَهُ من الصُّوَر الإنسانية، ولكن بعد أن يفرغ من هٰذا كله، ويقترب من منطقة سكنه، فإن صورة من الحسرة والحزن والأسى تخترق جدران حياته، وكأنه في هٰذه الحالة قد أفاقَ من صدمة شَتات الغربة، فتغمر نفسه صور الشوق والحنين إلى كل مشهد تقع عليه عيناه في حارته، فيتخلص عند هٰذه الحالة من كل صُوَرِ الماضي الحزين، وتسترخي أعصابه، وتهدأ نفسه تماما كالطفل الذي انقطع عن مشاهدة والديه فترة من الزَّمن، فتراه يبكي ويصرخ ويتأوَّه ويثور ويغضب ثم حينما يعرض على أبَوَيْه،

فإنّك ترى كل هٰذه الحالات التي أصابته من العصبية وغيرها قد اختفت تماما، وَحَلَّتْ محل هٰذه الأشياء صُوَر من الرَّاحة والهدوء والإطمئنـان النَّفسي!!، ولكن هل يبقى هٰذا الشَّخص ثابتاً على حالتـه هٰذه أو تلك؟! بالتأكيد فإن حالة ما، ثابتة من الاستقرار، سوف لن تدوم في نفسية متقلقلة مضطربة قلقة، فهذا الشخص الذي جاء إلى أرض بلاده لِيَقضي فيها مُدَّةَ إجازته وهي عبارة عن فترة محدودة تتراوح من شهر إلى شهرين أو أكثر أو أقل بقليل، وهو بالمقابل يغيب عن أرض وطنه سنة أو أكثر، فشخصية كهذه يمكننا أن نتساءل: كيف يمكنها أن تُشْبع كل صُوَر الحرمان القاسي الذي كابدته طوال هٰذه المدة في فترة قصيرة كهذه؟!!، للجواب على سؤال كهذا، نستطيع أن نضع له هٰذا التشبيه، والذي يتمثل في طفل قد حُرِمَ مدة طويلة من الدّخول إلى غرفة العابه، ثم بعد هٰذا الحـرمان الطّويل، أخذْنا هٰذا الطفل، وَسَمَحنْا له بالدخّول إلى الغرفة لمدة مؤقتة من الزمن، فماذا تراه صانع بهذه الألعاب؟!!، إنـه لا شكَّ سيدخل إليْها وهو مُصاب بحمّى من الفوضى، فهو كالمفجوع يريد أن يركب هٰذه الدرّاجة، ثم يتركها، ويذهب إلى تلك!!، ثم يريد أن يلعب بهذه اللّعبة، فهذه لم تعجبه، يريد أن يلعب بغيرها، وهو في هٰذه الحالة، تجده مصاب بهذه الفوضى والتّسرع والعجلة، فهو يريد أن يُشْبع نَهَمَهُ وحرمانه في خلال هٰذه المدة القصيرة!!، ونتيجة لهذه الحالات الفَوْضوية التي أصابَتْهُ، فإنه لا بد وأن يتسبب في كسر وتخريب كثير من هٰذه الألعاب نتيجة لفقدانه السيطرة على نفسه وعدم التّركيز في استعمال ألْعابه!!،

هٰذه الحالة هي شبيهة بصاحبنا المغترب الذي قد أتى إلى وطنه في خلال هٰذه المدة القصيرة، لقد جاء وهو فاقد لكثير من الصِّفات المعنوية، واضطر أن يلجأ في بلاد الاغتراب إلى طرق ووسائل من الكذب والنِّفاق، والخضوع والذل والصبر على الاضطهاد وهو ما أعنيه (الصبر الإجباري)، فإذن هو قد جاء وهو فارغ من الصوُّر المعنوية، إلا أنه بالمقابل، قد ملأ جيبه بالمادة!! هٰذه المادة لا بد وأن يستعملها كوسيلة للتّعويض عن كل هٰذه المعنويات التي افتقدها، فيجب عليه إذن أن يبرز في هٰذا المجال، وَيُوهم سائر النّاس بحياته الأرستقراطية، فيلجأ إلى شراء السلع والبضائع النفّيسة، فيحملها إلى بيته على مرأى من الناس، الذين يكثرون من النّظر إليها، بتَلَهُّفٍ وحسرة، لعدم استطاعتهم من شرائها، وهو حينما يراهم ينظرون إليه باهتمام بالغ، فإن نفسه التي ظلّت صغيرة في بلاد الاغتراب، يراها الآن تكبر وتعظم حتى يظن أن نفسه، قد تحولت إلى مُجَسَّم كبير، أو فيل ضخم!!، لا تكاد تتسعه الأبنية ولا الطرقات ولا براري الأرض ولا تلك الفلوات، على الرّغم من اتساعها، وحينما يجد هٰذا الإهتمام الذي كان في أثناء الاغتراب يُشَكِّلُ صفراً، قد أخذ يتنامى ويتزايد عند أقربائه وجيرانه، أو النّاس المحيطين به، فإنه يبدأ بعد ذلك في فَرْدِ العضلات حتى يوهمهم بِمَدى أهميته فيلجأ إلى عمل الموائد الضَّخمة، فيذبح الخراف ويطبخها على طريقة أهل البلاد التي كان يقيم فيها، فيسكُبُ الخروف الواحد كاملا في طبق واحد، مُتَقَمِّصاً شخصية الأغنياء والمُتَرفين!! لِيَبْدوا في أعين الآخرين سخيّاً كريما، فائض

اليدين!!، بينما هو في بلاد الأغتراب تراه منكمشا على نفسه، منقبض اليدين، شحيحا لا يجازف ببذل أمواله وَصرْفها بمثل هٰذه الطريقة، إلا بما هو ضروري ومطلوب عنده بإلحاح!!.

وإنني أُحب أن أزيد في إيضاح هٰذه النقطة بشكل أكثر تفصيلا وهو أن المغترب في هٰذه الأيام قد كفَّ عن البذل بعض الشيء، خاصة إذا قيس هٰذا السَّخاء قبل فترة قوامها سبع سنوات، وما قبلها، فقد كانت حالُهُ في ذلك الوقت، أكثر ربحاً وَيُسرا مما هي عليه الآن، وكذلك نستطيع أن نعتبر هٰذا القياس ساريا على أهالي البلاد (المواطنين)، وقد نشأ هٰذا الشُحّ أصلاً عن النقص المفاجيء في موارد عائدات تلك الدول التي تستورد الأيدي العاملة، مما نتج عنه ضآلة المَرْدود الماديّ الذي يحصل عليه المغترب، سواء كان عاملا أو مهنيا أو صاحب أعمال حرة، ففي تلك الفترة الذهبية المشار إليها، كان المغترب يُحَمِّلُ نفسه بالهدايا الثمينة، ويوزعها حين وصوله إلى عموم أهله، وكافة جيرانه وأصدقائه، وكان كل فرد منهم، ينال نصيبه من هٰذه الهدايا، وكذلك المساعدات المادية الجزلة، التي كان يهبُها المغترب إلى بعض أفراد عائلته، ويقوم أيضا بإرسال الحوالات المالية لهم، إنْ هم طلبوا منه ذلك، وقد كان لا يتردد، عن تقديم أية مساعدة، تُطْلبُ منه، مما جعل له في السابق، مكاناً مميَّزا ورنيناً عند أفراد عائلته وأقربائه. وقد كنت أرى أن كثيرا من الاحترام والتّقدير يبذل له عن طيبة خاطر!!. أمَّا الآن وقد قَلَّتْ هٰذه الحوالات وتوقفت

المساعدات الضخمة، التي كانت تتمثل في تقديم مساعدته لأي من أقربائه وذويه، سواء كان ذلك في بناء بيت أو في شراء سيارة، أو في فَتْح دكان أو مصنع، أو غير ذلك من مثل هٰذا القبيل!!، وقد كنت لا أرى أي تَرَدُّدٍ من المغترب في دفع أية مساعدة أو منح أيِّ مبلغ مهما كان ضخما لذويه المحتاجين دون مطالبته لهم بتأدية هٰذه المبالغ له مرة ثانية. وسبب سخائه هٰذا، أنَّ حالةً من الاعتقاد المُطَمْئِنْ، ظَلَّتْ تسودُه، طوال فترة الاغتراب، مَبْنية على أساس أن بلاد الاغتراب هي دائمة له ومستمرة، وهو إن لم يستطع هٰذه السَّنة توفير المال، فهو في السنوات القادمة سيقوم بذلك!! ولكن حينما قَلَّتْ العائدات المالية للدول المستوردة للعمالة، فإنها هي بالتالي قد قَلَّصَتْ من قيمة المصروفات المالية، وسعت كذلك إلى وسيلة الاستغناء عن العمالة بكافة أنواعها، مما نتج عن ذلك شعور المغترب بحالة الخطر التي تتراكض خلفه!!، فهو مُعَرَّضٌ في أي وقت للاستغناء عنه، وإذا ما حصل له ذلك، فإنه يكون قد أفنى غربته دون أثر ماديّ يعينه على أعباء الحياة، خاصة بعد أن ازداد عدد أفراد عائلته، وكبُرَ أطفاله، فأصبح ينوءُ تحت وَطْأة أعباء متطلباتهم المتعددة والمتنوعة، وعليه أنْ يعمل على تأمين لوازمهم، أكثر مما كان عليه في السابق وهم أطفال، زيادة على ذلك، ارتفاع في غلاء المعيشة وارتفاع اسعار كافة أنواع السِّلع والكماليات. هٰذا كله قد أضاف عِبْئاً هامَّاً على قائمة المصروفات لديه، مما ألْحَق بميزانيته عجزاً كبيرا، لا يستطيع في ظل هٰذه الظروف أنْ ينهض بها نهضة سريعة، كي يُرَمِّمَ ما فاته في السّنوات

السّابقة، فهؤلاء أقاربه الذين قد كان يقدِّم لهم المساعدات المالية قد استطاعوا أن يقطعوا مسافات شاسعة من المستقبل أمامه، فهم قد قاموا بشراء العقارات وإنشاء المباني، وتأمين المصادر المادية، أمّا هو فقد ظَلَّ يَئِنُّ وحده في ذلك الطريق البرزخي الضيق، فلم ينتبه منذ البداية إلى مستقبله، أو حتى لبناء منزل له ولأفراد عائلته!!.

فهو قد كان باستطاعته أن يقضي إجازته السَّنوية بين عائلات ذويه وأقاربه حينما كانت أسرته صغيرة العدد، أما حينما كبرت أسرته وأَسَرُ أقاربه وذويه، فقد أصبح من غير المعقول أن يتسّع بيت أحد هؤلاء، إلى هٰذا العدد الضخم من الأفراد، مما نتج عن ذلك أن بدأ هؤلاء الأقارب يظهرون تبرُّماً متزايداً أو بعض التبرُّم من وجود هٰذا المغترب بينهم!! زدْ على ذلك، أنه قد توقف عن إرسال أو تقديم المساعدات المالية لهم، لذا فإن المسألة قد أصبحت تأخذ طابعاً فيه شيء من الحُنق لدى كل طَرَفٍ على الآخر، فالمغترب حانق على هؤلاء الأقارب والأهل، لأنه قَدَّمَ لهم كل ما يملك، أيام شبابه وقوَّته، وأَوَجِهِ المادي!!، وها هم الآن يُنْكرون عليه صنيعه السَّابق، أو حتى استقباله كضيف بينهم!!. وكذلك هم ايضا، قد اعتادوا سابقاً على سخائه وبذْلِه، فكيف إذا رأوْا أنَّ كل شيء قد توقف تماما، وأمام لمح البصر!! فكيف إذن سيحدث ذلك الإنسجام المنشود الذي ينبغي أن يكون قائماً بين هذيْن الطرفين؟!!.

إنَّ عمـلية الـقـيام بتفحص لمثــل هٰذه الأمـــور المتعلِّقــة والمتشابكة، وغياب المصالح الذّاتية والشخصية أيضا التي كان يجنيهـا كل طرف من الـطرف الآخـر، قد خلقت لدى الـطرفين مفاهيم غير مُنْسجِبة وَمُنْسجمة مع بعضها البعض، هٰذه المفاهيم قد أصبحت على النقيض تمـاما، بل إنها قد توغَّلت إلى داخل النفوس، لِتَرسم بداخلها نقطة سوداء داكنة، فهذا مُستاء من هٰذا الـطَرَف، والآخـر مُسْتاء أيضاً، وهٰذا يُبْدي لَوْمه وعتابه، والآخر كذلـك يقـوم بنفس الفعـل والعمـل!! وهكـذا تتشاحن النفوس وتتحامل على بعضها البعض، وكأن أَحَدُهُما لم تكن له علاقة يوماً ما بالآخـر!!. ومـع هٰذا وذلـك كله، فقـد غاب التفـاهم وغاب المُصْلحون، وأصبحوا بَدَلَ أنْ يقوموا بعملية الاصلاح، يُرَجِّحون وَيُناصرون طرفاً على الآخر، مما يُذْكي من روح الشُّعْلة المتأججة في داخل الصدور والقلوب!!.

ومن خلال هٰذا الواقع المُؤلم، فإنه لا بد وأن يحدث إزاء هٰذا الصُّـدود سَيْلٌ من ردود الأفعال المباشرة أو غير المباشرة من قبل المغتـرب، كأن يلجـأ إلى التفرغ الكامل والانتباه لنفسه، فأخذ يعمل على رفع روح ومستوى المعيشة عنده، فبدأ في تسخير كل امكانياته من أجل بناء ما فاته، كأن يتفرَّغ لشراء العقارات، لِيُشيد عليها بيتا، أو أن يشتري بيتا جاهزا لِيَروي ظمأَهُ من هٰذه المشكلة التي أقلقت مضاجعه، في أثناء إجازته، ويقيَتْ تُطارده طوال سنين ماضية، يتحمل فيها من مُضيفيه نَظَراتهم وتَبرُّماتهم تِجاهه، لقد

كان يحس ويشعر بِثقل وطأته على عتبات بيوتهم!!.

ولكنَّهم خَجِلون من إبـداء أية اعتـراضـات، بشكـل جَلِيٍّ وواضح أمامه!!، فإذن يقصد المغترب من وراء نهوضه هٰذا نحو نفسـه، وأفـراد أسرته هو أن يُحَقِّق لهم ما عجز عن تحقيقه منذ البـداية، وَلِيُثْبتَ لهؤلاء أنـه ما زال قادراً على أن ينجـز الكثير، ويشتـري لنفسـه المصـالح التي تزيد من دَخْله وإيراده، وحينما يسمـع أقـاربـه بانجازاته تلك، فإنهم يأخذون في التَّمْتَمات في أحاديثهم وإبداء الدَّهشة والاستغراب تجاه أي عمل عظيم يستطيع أن يُحققـه!! ممـا ينتـج عن ذلـك عِظَمُ نفسه في داخل نفسه، وَتَعاظُمِها على الآخرين!!.

قال لي أحدهم: حينما قُبِلْتُ كَمُدرِّسٍ في إحدى البَعَثات، كنتُ قد جمعت كافة ما لديَّ من كتب وأوراق رسمية لازمة لي، وَأَوْدَعْتُهـا في داخل صندوق، وأقفلته، ووضعتُه كأمانة عند عَمَّتي، وقد اعتدتُ بعد ذلك الحين أن أنزل عندها ضيفا خفيفا مُنْفردا، وَعمَّتي هي الأخرى كانت تسكن في ذلك البيت وحيدة، وقلت في نفسي: لعلها تتسلى معي، فَأُواسيها في وحدتها، ولعل صندوقي هٰذا يبقى لها منيِّ ذكرى حينما أَنْتَهي من إجازتي وأَعودُ إلى بلد الاغتراب!!، وتابع ذلك الشخص حديثه لي قائلاً: ثِقْ تماما أنني عدت إلى بيتها ذات يوم، قبل أن تنتهي إجازتي بيومين أو ثلاثة أيام، وقد اعتدت حين وصولي أن أتناولَ أو أضعَ في هٰذا الصندوق بعض الأغراض التي تَخُصُّني!!، فما كان منها إلا أن استقبلتني

ثائرة وَصَرَخَتْ في وجهي، وأنا أتَّجهُ إلى ناحية صندوقي، الذي أضع فيه بعض أمتعتي، قائلة: أتمنّى أن لا تعود إلى بيتي مرة ثانية!!، وإذا كان هٰذا الصندوق هو حجتك في العودة، فَخُذْ صندوقَكَ وارْحَلْ عني، وَدَعْني وَشَأْني!!.

وقال لي صديق آخر: لقد تَعوَّدَ عدد من أفراد عائلتنا خاصة إخوتي أن أقوم بتحويل الحوالات المالية كلما طلبوا مني ذلك، وقد كنت لا أبخل عليهم بمثل هٰذه المُساعدات، إلا أنه وبعد أن اضمحلَّتْ قيمة العائدات التي نحصل عليها شهريا، فقد أصبحت عاجزاً عن تقديم هٰذه المساعدة، خاصة وأن أحد أفراد إخوتي قد ظَلَّ يُرسل لي بين الفينة والأخرى، كي أُحَوِّل له مبلغاً ماليّاً من أجل مساعدته في بناء منزله الجديد، وحينما أُرْسلتُ له، أنني لا استطيع أن أُقَدم له أية مساعدة نظراً لأن راتبي قد أصبح محدوداً جداً، وأنَّ عدد أفراد أُسرتي قد ازداد، وازدادت مع ذلك مطالبهم!!، فإنه قد أرسل لي رسالة شديدة اللَّهجة، يَتَّهِمُني فيها بالثَّراء الفاحش، والبُطء عن تقديم المساعدة له!! فأَرْسلتُ له رسالة قلت له فيها: «يا أخي . . . إنَّ مطبعة النقود التي لديَّ قد خَرُبَتْ، وأصبحت عاجزةً عن طَبْع أية نقود أخرى حتى أُرْسلها إليْك»!!.

وإذا كانت هٰذه القصة، تدل على طَمَع الأقارب في مغتربيهم، فإن هناك قصصا أخرى مماثلة تدل على نفس هٰذه الدِّلالات، وإذا ما تَتَبَّعْنا أَصْل الأسباب التي خَلَقَتْ هٰذا الطَّمع،

فإنَّ ذلك يرجع للمغترب الذي عَوَّدَهُم على ذلك أو فَلْنَقُلْ أحيانا الحسد، وذلك لأن الطَّمع إذا لم تتحقق رغباته، فإنه يتحول إلى حسد وَغِيرة، والحَسَدُ بطبيعته إذا ما توغَّل في الإنسان، فإنه سَيُورث الحقد والكراهية والاضطهاد، ومن ثَمَّ الفُرقة والافتراق!!.

حَدَّثني أحد الأصدقاء، قال: «كنت قد حَدَّثْتُ نفسي يوما أن أُقيم لنفسي ولأفراد عائلتي مشروعا صغيرا، أُحققُ لهم منه بعض الأرباح التي نَجْنيها من وراءِ هٰذا المشروع، وقد أَخَذَتْني طُرُقُ الأسباب، وساقَتْني لِشراء سيارة أُجرة مع أحد إخوتي، الذي كان يَحْمِلُ رُخصة قيادة عمومية، وقد عقدت أملا كبيرا على نجاح مشروعنا هٰذا، وقلت: لعلَّ هٰذا المشروع سيكون النُّواة الأولى، كي نقومَ بتوسعته في المستقبل!!، وقد أَيَّدنَي ذلك الأخ في قَوْلي بكلِّ تأكيد، وَصَرَّح لي قائلا: إنني سأكون عند حسن ظَنِّك في المستقبل!!، وحينما انتهت إجازتي بغد ذلك بعشرة أيام، سافرْتُ عائدا إلى مكان عملي، في بلاد الاغتراب، وقد فوجِئْتُ بعد وصولي بشهر أنَّ أخي هٰذا، بَعَثَ لي مع أحد الأشخاص رسالة شفوية، يطلبُ مني كي أقوم بتحويل مبلغ كبير له!!، وحينما سألتُ هٰذا الشَّخص: لماذا يريد هٰذا المَبْلغ؟! فقال ذلك المبعوث: إنه يطلبه من أجل إصلاح ماكينة السيارة!!، فقلتُ له: لقد تركت السيارة، وماكينتها على أحسن حال!!، فهل من المعقول أنها قد خَرُبَتْ في خلال هٰذه المدة القصيرة؟!!، ولم يتمكن المبعوث أن يُعطيني جوابا على ذلك!! وانتظرتُ حتى جاء

موعد إجازتي ، وقد كنت أتوقع وصول رسالة منه ، يقول لي فيها : لقد وَفَّرْتُ لك حِصَّتَكَ من أرباحِ السيارة كذا وكذا ، ولكنَّ شيئاً من هٰذا القبيل لم يحدُثْ ! ! ، فنزلتُ إجازتي السنوية ، وقابلتُ أخي ، ولم يُفْصِحْ لي عن شيء من الحساب ! ! ، فقلت في نفسي : لعلَّهُ يُفْصِحُ عن ذلك بعد يومين أو ثلاثة ! ! ، ولكنه لم يتطرق إلى ذكر شيء من هٰذا ! ! ، وحينما صارحتُهُ في هٰذا الموضوع : هَزَّ كَتِفَيْهِ مُحْتجاً بأعلى صوته قائلا : ألا يكفيك أنني أقوم بالمحافظة على السَيَّارة على أحسن وجه وأفضل حال ؟ ! ، مِنَ المفروض أن أطالبك بدفع ثمن محافظتي عليها ! ! وقد بعثت لك كي تدفع ثمن هٰذه المحافظة مع فلان ! ! ، إلَّا أنك قد تباطأْتَ عن الدفع ! ! ، ولكن ها أنا ذا أقولها لك وبكل صراحة : إيَّاكَ وأن تطالبني بأية أرباح ! ! ، أو أن تطلب مني أن أكشف لك عن أَيِّ حساب ! ! ، فقلتُ له : لا . . . لا عليك . . . إن كل ما أريده ، هو أن تعطي والدتي مبلغ عشرون دينارا فقط من أرباح هٰذه السيارة ! ! فاستعدَّ لي ذلك الأخ بذلك ! ! . ولكنْ بعد مُضِيٍّ أكثر من سنتين ، فوجئت وإذا بأخي يُبَيِّتُ لي مَقْلبا ، وذلك كي يُنْهي حِصَّتي من السيارة ، بطريقة صامتة ! ! ، حيث أنه قد صَرَّح لي ذات يوم ، في أثناء إجازتي ، بأنْ يخصم مبلغ العشرين دينارا ، الذي يدفعه لوالدتي شهريا من قيمة رأسمالي في ثمن السيارة ! ! ، وحينما تَعَرَّفْتُ على نيَّة ذلك الأخ ، قلت له : إنها والدتي مثلما هي والدتك ! ! ، ومن حَقِّها علينا نحن الاثنين أن نُقَدم لها المساعدة ، فهذه العشرون دينارا هي قيمة العائد الشهريِّ لي من الأرباح ، لا أُضعهُ في جَيْبي الخاص ، وإنما

أعطيه لوالدتي، وبما أنني قد سَلَكْتُ هٰذا الاتجاه، فمن الواجب عليك، أن تعطيها نفس هٰذا المبلغ!!، حين ذلك انفجر ذلك الأخ غاضبا وساخطا!! وقررت في ساعتها إنهاءَ هٰذه الشّراكة في أسرع وقت ممكن!!.

ثم تابع ذلك الشخص، يَسْرُدَ لي حكايته قائلا: لقد ابتَعْتُ السيارة لنفسي كاملة، وأعطيتُ أخي حصّته من المال كثمن لتلك السيارة!!، وقررتُ بعد ذلك، أن أَضَعَ لها سائقاً بأجر شهري، وساقتني المقادير كي أضع لها سائقاً، له صلة قُرْبى بأحد أطراف العائلة، وسافرْتُ بعد ذلك عائدا إلى مقرِّ إقامتي في البلد الذي أعمل فيه، كانت تصلني خلال مدة غيابي رسائل ومكالمات هاتفية تَنُصُّ جميعها على أن هٰذا الشخص، قد استغل تلك السيارة أَسْوَأَ استغـلال!!، وأنه قد أصبح يقوم بتدريب أصدقائه وأقربائه على قيادتها ولم تصل الأمور إلى هٰذا، فقد وَصَلَتْني معلومات بأنّه قد أصبح يقوم ببيع بعض القطع الخاصة بها، والسَّهرَ المتواصل إلى ساعة متأخرة من الليل، بعيدا عن منزله، مما اضطرني بأن أقطع عملي وأذهب في إجـازة اضـطرارية، كي أُنْهي هٰذا المـوضوع معـه!!، وحينما وَصَلْتُ، وجدت أن السيارة قد فَقَدَتْ عدداً من قطعها، هٰذا بالاضافة إلى عُطّلِ مُحَرِّكها الذي أصبح يحتاج إلى تَوْضيب كامل!!.

هٰذه الحكـايات أو القصص التي أسـردهـا من واقـع حال المغترب السيء، وعلاقته مع أهله وأقربائه وذويه، فالكُلُّ يريد أن

يتنعم من خيراته، وأنْ يُصيب ولوْ جزءاً يسيراً منها، وإذا لم يُصِبْ أحدٌ شيئا منها، فإنَّ اللَّعنة من هؤلاء والسُّخط والكراهية والاضطهاد ستظل تطارده إلى أن تزهق روحه في بلاد الاغتراب!!، وإذا ما كُتِبَتْ له السَّلامة، وعاد حَيَّاً يُرزْق، أو إذا ما أُلْغِيَ عقده، أو إذا ما أُنْهيت فترة إقامته فإنَّكَ لن تستطيع أن تحصي عدد الشامتين له والسَّاخطين عليه!!، ولا يستطيع هو مع ذلك، أن ينجو من نفاذ سهام نظراتهم الحادة!!، التي تنبعث من قلوب مليئة بالتَّشفِّي وحبِّ الانتقام!!، وما على المغترب في هٰذه اللحظات الشامتة إلَّا أن يَجُرَّ أذْيال نفسه، وَيُلَمْلِمُها على بعضها البعض، كي يبقى على الأقل محتفظا بتوازنه وعدم السُّقوط أمامهم!!، ولكن من أين له هٰذا الصَّمود، وقد تحمَّلَ في غربته مثل هٰذه النَّظرات، ووقع طويلاً في مستنقعات الاضطهاد، وَمَجَّتْهُ غالبية أهالي البلاد الذين كان يقيم بينهم، ولكنه مع ذلك صَمَدَ، وظلَّ واقفا على الرَّغم من الجراح التي لم تندمل، والتي طَبَعَتْ آثارها البالغة في نفسه!!، إلا أن نظرات الأقارب والأهل تظل تلك الجراح السَّامة القاتلة بالنسبة له!! لأنهم بدلا من أن يُسارعوا في معالجته واسناده، وتقديم الروح المعنوية له، فإنهم يسارعون فورا إلى تخليص ما بقي من روحه، كي يميتونه، وهو ما زال حَيَّاً، ذلك أن ظُلْمَ الأقرباء هو من أشد أنواع الفتك بالإنسان، وذلك مثلما يقول الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً
على المرء من وقع الحسام المهند

نعم، لقـد صَدَقَتْ مقـولـة هٰذا الشاعر في هٰذا القوْل، وما أَظُنُّهُ، إلاَّ وأنْ عانى هو الآخر، وذاق من ويلات هٰذا الظُّلم!!، ولكنَّ ما أريد أنْ أُنْهي موضوعي هٰذا به: هل سيفيق الإنسان يوماً ما، ليصحو على وَخْزِ ضميره النائم!!، فيعمل على أن يتجرد من كل مصالحه الذَّاتية والشخصية وَلِيَتْرُكَ كل الصَّغائر والتَّفاهات التي تعرقل مسيرة الأخ مع أخيه، والقريب مع قريبه، ومن ثَمَّ الإنسان بأخيه الإنسان!!.

فوائد الاغتراب

بعد أن استعرضنا في مواضيعنا السابقة العلاقة بين المغترب وكافة ما يحيط به من الشرائح الاجتماعية، على مختلف أنواعها، حيث رأينا كيفية وضعه بالنسبة للظروف المحيطة به، وكذلك استطعنا أن نتعرَّفَ على نفسيته بشيء من التَّمحيص، وببعض من التَّحليل، والآن وطبقاً لهذه الاستعراضات الفائتة الذُّكر، نودُّ أنْ نقوم ببعض الاستنتاجات وبعض الاستخلاصات، لِنَرى بأنفسنا، هل أنَّ معاناة المغترب ومكابدته لِشَتَّى أنواع الهموم والعذاب النَّفسي، وكذلك تعرُّضه لشتى أنواع صور الحرمان النفسي وسواها من الأمور الأخرى، هل يستحق هٰذا كله من المغترب، بأنْ يَصْبر وَيُضَحِّي لِيَنال بالمُقابل، ثمناً مُجزياً، يُضاهي كل هٰذه الأمور التي ذكرناها؟!!، أم أن المغترب يتحملُ هٰذا العناء كله في غربته من أجل فائدة لا تُذْكر؟!!، فإذا صَحَّتْ طريقة عرض هٰذا السُّؤال، فإننا نريد أن نطرحه بشكل أكثر إيضاحا وإيجازا، ويتمثل هٰذا الطرح كالتَّالي: هل المغترب رابحٌ أم خاسرٌ في غُربته؟!!.

وَلِمَعرفة إجابة دقيقة على سؤال كهذا، فإننا لا بد وأنْ نضع فوائد ما يجنيه المغترب في كَفَّة، وبالمقابل نضع خسائره في كَفَّة أُخرى!!، وبعد ذلك يصبح من اليسير علينا، أن نتعرف على نوعية التجارة التي يتعامل بها!! وهل هٰذه التجارة رابحة أم خاسرة؟!!.

وهـل هي مُشَجعـة للآخـرين، مِنْ أَجْـلِ الإقدام على الإتِّجار بهـا؟!!، أم أنَّهـا مُثَبِّـطة للعـزائم والجهـود، مُرْهقـةً للجسم والنَّفس!!، غيرُ مُشَجِّعة على مُزاولتها؟!!.

وعلى أية الأحوال، وقبل أن نُقْدم على ذكر الفوائد العامَّة التي يَجْنيها المغترب من جَرَّاء غُربته، وبعد أنْ نَتَعرف في الموضوع التَّـالي، على أضـرار الاغتـراب، فإنه لا بدَّ وأن نتعرَّض لبعض الأمـور الجـانبية التي لَيْس لهـا علاقـة مبـاشـرة بصميم فوائـد الاغتراب، ولكنَّها هي في الحقيقة، عبارة عن نَبْش لِتُراث ماضٍ قد شَكَّلَ جزءاً عريقاً في تاريخ حياتنا نحنُ بني البشر، فَخَلَقَ الله سبحـانـه وتعالى فينا هٰذه الصِّفات التي أُعْتَبِرُها غاية في كمالية النفس، وإغراقاً في شفافيَّتها، فَكُلُّنا يعرف مدى ما تعكسه الرِّحلة القصيرة من أثر إيجابي كبير على نفوسنا، هٰذه النفوس التي ترتقي في أثنائها إلى مستوى عال من الشَّحن المعنوي لها، وتكاد تهبط عليها أجنحة الارتقاء والطَّرب وشعورٌ عالٍ من الأحساس، تجاهَ أيَّة مناظر خلاَّبة، تقعَ عليها أعيننا، أو تغريدةُ طيرٍ، على غُصنٍ مُخْضَرٍّ تَسْمع به آذانُنا، أو صوتُ جدول صغير ينحدر الماء من خلاله، لِيَرسم أمام أعيننا لوحات فنية رائعة!!، أو يوقع في طَبْلة آذاننا صوتا موسيقيا رائعاً، تُعزف على مِنْواله أحلى أُغنية وأجمل إيقاع!!.

فإذا كانت الأمـور هكـذا، فكيف بنـا إذا امتـدت بنا أعناق المـطايا إلى آفاق بعيدة مُترامية الأطراف، لم نَكُنْ يوماً ما نتوقع وُصولها، لولا فضل الله علينا، حيث سَخَّر لنا ما نستطيع أن نُحَرِّكه

بأيدينا، لِنَبْلُغَ بواسطته شَتَّى بِقاع الأرض، وأَقْصى ما نَتَوَهُّمُه من دِيار!!.

إذن فمن المعروف أنَّ في التنقل والحركة رزقٌ وبركة!!، وإذا ما أردنـا أن نضع هٰذا الموضوع في المعيار الإسلامي وغيره من المعايير الأخرى، لَوَجدنا أنَّ القرآن الكريم يحثُّنا في بعض الآيات القرآنية على السَّعي وطَلَب الرِّزق، فيقول جَلَّ وعلا: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ صدق الله العظيم، وهناك أيضا من أعْلام وَفُقهاء ديننا الحنيف، كالإمام الشافعي الذي حَثَّ على الاغتراب، وَعزُّوا في ذلك، أنَّ له عِدَّةَ فوائد، وقد صاغوا هٰذه الأقوال، بطريقة شعـرية جميلة، حتَّى ترسم في داخـل نفوسنـا، مدى ما يجنيه الإنسان من وراء الاغتراب!!، وقد عدَّدوا فوائده في أشعارهم التي لا أكاد أحفظها، أو أن آتي على ذِكْرها!!، ومهما تكن الأحوال، فإنَّ للاغتراب فوائده العلمية قديماً، فقد كان العالم أو الفقيه أو الشاعر أو الأديب أو الطبيب أو الجَغرافي، يَقْطعُ فيافي الأرض، وَيُخاطرُ بنفسه، أشَد مخاطرة، من أجل تحصيل العلم، وها نحن نجدُ في كثير من كُتُب تاريخنا الإسلامي، أنَّ ما مِنْ عالمٍ استطاع أن يَبْزُغَ في عِلْمه، أيَّما بُزوغ أو إظْهار، إلاّ بواسطة التنقل والحركة من مكان إلى مكان، تماما كالنَّحلة التي تنتقل على شتى أنواع الأزهـار وتقطع في تَنَقُّلها أشواطاً بعيدة، كي تأتي برحيق زهرة، تضعه في داخل خَلِيَّتها، ولو أنَّها قد اكتفت بامتصاص الرحيق من مصدر قريب من خَلِيَّتها، ومن نوع زهرة واحدة، لَمَا اشتهر عَسَلُها، بالشكل الذي نعرفه.

والاغتراب بصورته التي نعرفها قديما خاصة في أثناء التنقل كانت صعبة جدا، وربما أَوْدَتْ الرِّحلة بصاحبها إلى حيث لم يَعُدْ إلى بلده مرَّة ثانية، أمَّا الآن فقد تَغَيَّرَ الوَضْعُ، وَأَصبحتِ أمور التَّنقل مُتَيسرة جدا، الأمر الذي يُشَجع أيَّ شخص وَيُغْريه كي يقوم برحلة الاغتراب هٰذه!!، ولكن الأمور قد اختلفت الآن، فَبَدَلَ أنْ كان الاغتراب يقوم من أجل تحصيل العلم، فقد تَبَدَّلَ الآن، وأصبح يقوم من أجل التَّحصيل المادي، فإذن الدافع الأصلي الذي يقف وراء الاغتراب هو تحصيل مادِيٌّ بَحْت!!، يتحمل صاحبه من أجله المشقات والصعوبات الجمَّة في بلاد الغربة!!، ولهذا فإننا قد نستطيع القول، أن مُغْترب العِلْم سابقاً كان يحتاج في أثناء تَنَقُّلِهِ في رحلته مَشَقَّةً وَعَناء، ولكنه حين يصل إلى أيِّ بلد للاقامة فيه، كان يجد التِّرحاب والاحترام من سكان البلد الذي يقيم فيه، فيقومون على خدمته، وتقديم أنواع المساعدة له، أمَّا مُغْتربو المادة، أو أصحاب التكسُّب في السابق أيضا، كالشُّعراء والأُدباء الذين كانوا يتكسَّبون بشعرهم، فقد كان التنقُّل مفيداً لهم، من الناحية المادية والشهرة، أما من ناحية التقدير والاحترام، فقد كان رَجُلُ العِلم يَحْظى بهما أكثر، خاصَّة وأنَّ العالِمَ كان يَنْزل ضيفاً عند عامة الناس، أما الشَّاعر فَمَجالُ حركته يدور حَوْل بلاط السُّلطان أو الخليفة، ولهذا فإنه مُعرَّض للطَّرد أو للنَّفي أحيانا، إنْ هو أَخَلَّ بأدنى حركة، عند ذلك الأمير أو السُّلطان، فالشاعر عبد السَّلام بن رَغْبان المعروف بـ «ديك الجِنّ» مَثَلاً، ظَلَّ جامداً في مكانه، فلمْ يشتهر على الرَّغم من قُوَّة شعره وجزالته، إلاَّ أنَّ شاعراً

مثـل أبي تمام مثلا، فقد تَنَقَّلَ من مكان إلى مكان، وَرَحَلَ إلى عاصمة الخلافة في بغداد، ولهذا السَّبب فقد اشتهر وذاع صيتُهُ هُناك، خاصَّةً حين قام بتأليف قصيدته البائية هناك، التي مدح فيها الخليفـة المعتصم، ممَّـا جعل الأجيال تِلْوَ الأجيال تَتَناقل على ألْسنتها أبيات هٰذه القصيدة، بكل فخر واعتزاز!!، ولو أن الشَّاعر ابو تمام، بَقِيَ في بَلَدِهِ حِمْصَ مثلاً، لَمَا استطاعَ أن يقول قصيدة كهـذه!! وأنْ يُعـطيها هٰذه الجزالة في المعاني والألفاظ والايقاع المـوسيقى لولا اصـطحاب المعتصم له في وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ، التي ألْهَبَتْ روح الحمـاس لَدَيه، ممَّـا جَعَلَهـا تتنـاسب وهٰذه الوَقْعة التَّـاريخية العـظيمـة!!، وتتناسب أيضا في مدح رَجُل عَسْكري كالمعتصم، وَيُضْفي عليه هٰذه الرُّوح القوية الثائرة!!.

إذن، فالاغتراب والتَّعرُّف على المَواطن الأُخرى، يُجْلي فِكْرَ الإنسان، وَيَرْسُمُ في داخله صورةً حيَّة عن واقع هٰذا البلد أو ذاك، وكذلك يستطيع الاستفادة، وَأَخْذِ كُلُّ ما هو جيِّد ومقبول، سواء كان ذلـك إحْـدى العـادات الحَسَنَة أو التَّقاليد الجميلة، أو ارْتِشاف بعض العلوم، أو تَشَرُّب بعض الثقافات، التي يمكن أن يأخذها المغتـرب تضـاف إلى إرْثـهِ الأصلي، وهٰـذه الأمور، إنْ أَحْسَنَّا استعمـالها، وكيفية اخْتيار المُناسب منها، فإنَّها من الممكن أن تُسـاعدَ في إثْراءِ الإرْثِ الحَضاري لِلْبَلد، سواء كان ذلك، بلد المُغْتـرب، أو البَلَد الـذي يعمـل فيه، لأنه ليس شرطاً أن يأخذ المغترب من مَوْروثات البلد الذي يعمل فيه، وإنَّما قد يأخُذُ أهالي

البلاد من هٰذا المُغْترب، وَيَنْتقوا منه المَوْروثات التي تتناسبُ مع وَضْعهم وظروفهم الاجتماعية.

فَتَبـادُلُ المعلومات الثقافية هٰذه، لا يأتي عن طريق البَحْث والطرق المباشرة المقصودة فَحَسْب، وإنَّما غالبا ما يأتي بطريقة عفـوية غير مقصـودة، وهٰـذه الطريقة التِّلقائية التي نَسْتَسْقي بها معلوماتنا لا تأخذ مِنَّا جهدا، لأنها ليست الغاية أو الهدف الذي نسعى إليه، فالهدف الذي يقف وراء الرِّحلة، أو الاغتراب كما قلنا هو غالبا ما يكون هَدَفاً ماديا، أو عِلْميا، أو أية أُمور أخرى ثانوية.

ولكن قبل أنْ نَشْرَعَ في ذِكْر تفاصيل هٰذه الأهداف، نريد أن نزيح بعض اللُّبس حول هٰذه النقطة التي نحن في صددها الآن، وأنْ نُبرز هٰذا السُّؤال: هل صحيح أن تبادل المعلومات الثقافية هٰذه يمكن أن يأخذ ويستفيد منها أي فرد!؟

إنَّ سؤالا كهذا، لا يُعتبر سؤالا عاديا تماما، وإنما هو سؤال يحتاج منا، الدقة المتناهية في الإجابة، فسؤال كهذا يحتاج منا التمحيص والقدرة على انتقاء المَوْروثات، ولا أعتقد أن شخصا عاديا يمكن أن يتجرأ على دخول أبواب كهذه، ما لم يكن عالما بالكوامن الخفيَّة والدقيقة للقواعد الاجتماعية التي تنبني عليها، ثقـافـات هٰذا الـبلد أو ذاك. يجب أن يوازن بين قواعـد بلده الاجتماعية المرعية، وبين هٰذه الثقافة التي يَنْتقيها، لِتَنْضَمَّ بالتَّالي إلى قواعد وأصول بلده الاجتماعية، إذن فعملية كهذه تتطلب منا الدقة والنَّظر في الأصول الاجتماعية طويلا كي نستطيع بعد ذلك

أن نستورد مثل هٰذه الدماء الجديدة لتنضم في داخل أَوْردتنا وشرايينا، ولكن إذا ما حدث وأَنْ كانت هٰذه الدماء المستَوْرَدَةْ مُلَوثة ببعض البكتيريا أو الجراثيم الضارة، فَوَيْلٌ لذلك البلد، إنْ عبثت هٰذه الجراثيم بعاداته وموروثاته، فإنها لا شك وأن تفتك بها أشد الفتك وتقتلها شرَّ القتل!!، وتحل هٰذه الجراثيم الجديدة الضارة محل البكتيريا الكامنة في الدماء الأصلية، ولا أعتقد أن دماءً ستتقبل بكتيريا لا تتناسب مع درجات تكوينها ولا أنواع عناصرها!!، وإنَّ الأمثال الحيَّة على ما أقول لَكثيرة جدا، فكَمْ مِنَ العادات والتقاليد والثقافات الأممية التي استَوْرَدْناها بطريقة جُزافية وغير مدروسة، فلاقت منَّا للوهلة الأولى استحسانا وقبولا!!، ثم ما لبثت هٰذه الجراثيم المُسْتَوْرَدَةُ وأنْ بدأت بالفتك بعقولنا وأذهاننا، حتى تركتنا خاوين من كل شيء، فأصبحنا ندور هنا، وندور هناك كالتَّائهين لا نَلْوي على شيء!!.

إذن فهذه العملية صعبة وشائكة جدا، والإنسان المُسْتَوْرِدُ لهذه العادات يُحْضِرهُا إلى أبناء مجتمعه وهو من الممكن أن يكون قد أُعجب بها!!، أو أنه من الممكن أن يكون إنسانا طائشا مَثَلاً، فجاء بما يناسب هواه وَطَيْشه!!. تماماً كما استَوْردوا لنا عادات غربيَّة لا تُناسبنا كَشَرْقيين وإسلاميين، فجاءوا لنا بسراويلهم وملابسهم المُزَركشة التي تشبه الحُمُر الوحشية في ألوانها، وَرَآهم البعض الآخر في أوروبا مثلا، يَجرُّون الكلاب الطويلة الشّعر، فجاءوا بهذه العادات وزرعوها في بلادنا، ثم قد اتسعت هٰذه العادات، وأخذت مَأْخذها في داخل جسم مجتمعنا!!.

فالعادة إذن، تَسْري في داخل كيان المجتمع كسريان النار في الهشيم، فينتشر دُخانها في كافة الأجواء المحيطة، مما يُفْسد بالتّالي الهواء النّقي، فيصبح مُلَوثا رديئا، لا تستطيع معه الرئتان أن تعملا بشكلهما العادي والطبيعي!!.

إذن، فالإنسان المُسْتَوْرِدُ للعادات ليس هو المُلامُ فَحَسْب، ولكنَّ المجتمع برِمَّته هو المُلام، ويتحمَّلُ في هٰذه الحالة قَسْطَهُ الأكبر من اللوم والعتاب وشدة التّقْريع!!، لأنه هو صاحب الشأن، وهو الوعاء الذي سَتُسْكَبُ فيه هٰذه العادة!!، فيجب عليه أنْ يُمَحِّصَ أي شيء قبل القبول والأخذ به، تماماً كالكُرَيَّات الحمراء التي لا يمكن أن تَتَقَبَّلَ جسما غريبا يحلُّ في أجزائها وكيانها!!، وإذا ما فعلت ذلك كان علامة صحة دامغة يُسَجَّلُ لها!!، وإذا لم تفعل، فمعنى ذلك أنَّها قد أصبحت ضعيفة خائرة، منهوكة القوى!!.

فالمجتمع المُعافى، إذن هو صاحب الصحة والحيوية والقوَّة والنشّاط، وهو يَعْرِفُ كيف يأخذ ما هو صالح ومناسب لوضعه الاجتماعي، وينفي من وراء ظهره كل شيء فاسد يرى فيه ضررا يحيق به وبنظمه وبتقاليده الاجتماعية!!.

وهناك نقطة أخرى، أُحبُّ أن أُضيفها في هٰذا السِّياق قبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى، وهي أن الأمم عادة ما تتنوع في درجات قبولها لهذه المَوْروثات، فهناك مجتمعات شبه مُغْلقة، لا يمكن أن تأخذ شيئا عن غيرها، حتى لو كان هٰذا الجديد فتحاً مُبِينا، يكونُ

لارتقاءِ ثقافتها وحضارتها، فهي تُفَضِّل أن تعيش في درجة مُتَدَنِّيَةٍ من التَّقَوْقُع والانكماش، وهي حَذِرَةٌ مترقبة لكل شيء يَدورُ حولها!!، حتى لو هَمَسَ النَّسيم، أو صَمَتَ الهواءُ من حَوْلها، فإنَّها تُرْخي بِأُذُنَيْها لهذا الهمس أو الصَّمت!!، فَتَنْصُتُ ثم تَنْصُتُ لِتَغْلي معها حالة الترقب والحذر الشديديْن، إلى أنْ تُصابَ أخيرا بالصَّم أو العَمَى!!. فتظل على حالها لا تتقدم ولا تتأخر، بل ترى الأمم تتقدم من حولها، وتظلُّ هي جامدة في مكانها، تنظر إلى تلك المسافات البعيدة، التي سَبَقَتْها إليْها الأمم، وهي تنظر مع ذلك بكل دهشة واستغراب.

على أية الأحوال، فَلَسْنا الآن بِصدد مواضيع كهذه، ولكنني قد رأيت أن أُعَرِّجَ عليها بعض الشيء، لِشدة التصاقها بمجال موضوعنا، فرأَيْنا أنْ نُنَوِّهَ ببعض هٰذه الأمور، حتى يكون مجال بحثنا أعمق وأوسع فائدة، وإذا ما عُدْنا إلى لُبِّ موضوعنا الرئيسي لنطرح الفائدة المادية التي يمكن أن نعتبرها رئيسية على مائدة البحث، فغالبا ما نجدها هي الهدف الحقيقي والمنشود الذي يسعى وراءه المغترب، ويلهثُ خلفه ويسيلُ لُعابه من أَجلها، وهو فوْقَ هٰذا يُكَلِّف نفسه فوق طاقتها، ويتحملُ الأعباء النَّفسية والمعنوية التي لا شك، أنها مع مُضِيِّ الوقت سَتُثْقِلُ من كاهله وتحطِّمُ من إرادته وَتَفُتُّ من عَضُدِهِ الشيءَ الكثير، ولكنْ إذا جئنا لهٰذه المادَّة ووضعناها في إحدى المقاييس الحسَّاسة جدا، وأردنا أن نَزِنَها وَزْنا دقيقا، فهلْ يا تُرى سنجدها فعلا قد عَمَرَتْ كل جيوب مُريديها،

وَأَوْفَتْ بجميع أغراض أصحابها؟!.

جواب على سؤال كهذا، لا يمكن تطبيقه على كل الفئات المغتربة، فهناك فئات يمكن أن نقول عنها بأنها قد استفادت استفادة كبرى، وحققت إلى حَدٍّ كبير، أغراضها المادية المنشودة، وهناك فئات أخرى أو لِنَقُل أفراد آخرون، قد حَقَّقوا لأنفسهم نصف الأهداف التي سعوا من أجلها، وهٰذه الفئة المتوسطة غالبا ما نجدها تشكل الغالبية العظمى من مجموع فئات المغتربين، وهي فئات يعمل أفرادها في وظائف تدريسية ومهنية، وأعمال متنوعة أخرى، وهناك فئات أخرى يعمل أفرادها في أعمال متفرقة، كانوا في السّابق يَحْصلون على دخول مرتفعة، ولكن مجال أعمالهم قد نَقَصَ الآن إلى حَدٍّ كبير، كَعُمال البناء، والكهرباء، والأعمال المهنية الأخرى، وَجُلُّ هؤلاء مِمَّنْ يعملون في القطاع الخاص، حيث أن نسبة عوائدهم المادية قد انخفضت وأصبحت طفيفة جدا وذلك يرجع لعدة أسباب قد تعرّضنا لذكر بعض منها في صفحاتنا الماضية، ويعود السّبب الرئيسي في ذلك إلى تَقَلُّص عدد المشاريع والعطاءات ومجالات العمل الأخرى التي كانت تطرحها الدول المُسْتَوْرِدَةُ للعمالات في الأسواق.

فإذا ما تناولنا الحديث عن الفئة الغنية التي استفادت من الاغتراب، بشكل قوي وملموس، فإننا نجد أن أعمال هؤلاء كانت خارجة عن نطاق الوظائف المُقَيَّدة، وأعني بها تلك الوظائف الحكومية العادية، فالوظائف الحرة أو الأعمال الحرة، كانت في

السّابق تَبيض ذَهَباً كلَّ يوم لصاحِبها، وهي غالبا ما تكون أعمالا في التجارة والمقاولات، وأعمالا أخرى مشابهة، وقد وصل أصحاب هٰذه الأعمال إلى درجات عالية من الغنى والثروة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتزحزحوا قَيْدَ أُنْملة عن أَجْنَبِيَّتِهم المُلْصَقَةُ بهم، علاوة على هٰذا فإنهم لم يفلتوا ممَّا تعكسه هٰذه اللفظة من نظرة استحقار وازدراء لهم من قبل المواطن صاحب البلاد، على الرَّغم مما حَقَّقَهُ من غِنى وَثَراء، فَنَظْرَةُ المُواطن له ثابتة لا تتغيَّر ولا تَتبَّدل، وهو أمامه دَجاجةٌ تلوذُ وتراوغُ وَتَجْبُنُ، ولنْ تراهُ أَبَداً على الرَغم من ثرائه هٰذا، يتقمَّص شخصية الدِّيك المُزْدهي بألوانه المزركشة، فهو إنْ فَعَلَ ذلك، فإنَّ لفظة واحدة من المُواطن ستضعه فوراً في الحضيض الأسفل، وَسَتنال من شخصيته، وأقلُّ ما يمكن أن يُقولَ له: «لا يَالأَجْنَبي جِيتْنا جَعَان، وَصِرتْ شَبْعان، وَصِرتْ إِتْعَلِّي خْشوُمَكْ علينا!!. إِخْسَ يا هالجَلْبْ!!.

فإذَنْ ثراء هٰذا الأجنبي، لا يمكن أن ينقذه من نظرة ازدراء المواطن له، بل بالعكس، فمن الممكن أن يزيد من درجة النِّقمة والحَسَدِ عليه!!، فإذن لا مناص له إلاّ وأن يَنْخَرِطَ في صُفوف إخوانه المغتربين، وَيَنْدمج معهم، دونَ أنْ يطلُب لنفسه تَمَيُّزاً يتسامى به عليهم، لأنه إنْ فَعَلَ ذلك، فإنهم لن ولم يقبلونه صديقا بينهم، لأنهم في طبيعة حالهم، يمتلكون قَدَراً كافياً من المال، ولكنه لا يسيل بين أيديهم كما تسيل في يَدَيْ صاحبنا هٰذا الثَّري!!، وليس معنى هٰذا، أنه سيفقد كل وسائل الاحترام

والتقـديرا!، بل بالعكس، سيجـد هٰذا الاحتـرام إنْ هو حاول التَّقَرُّبَ منهم، بشكل عادي. وهٰذا أَمْرٌ يختلف بالنسبة إليه حينما يعود إلى بلده، وهو بهذا الثَّراء سيجد هناك عدداً من الفُضوليين والمُتَـطفِّلين، وغيرهم من الفئات الأخرى، يَتَمَسَّحون بأذْياله إنْ قامَ، وَيَتَشممونه إذا جَلَس، وتراهم يتراكضون من حوله، وَيَتَنصَّتون لأي أمْرٍ بسيط يُمْليه عليهم، فترى كلَّ واحد يريد أنْ يَسْبِقَ الآخر، كي ينال شرف خدمته وَرِضاه، ومن هٰذا المُنْطلق، ومن موقع هٰذه القاعدة التي وَجَدَ نفسه يجلس عليها فإنَّ ظهور (الأنا) الغائب عنه في بلاد الغـربـة، حيث لم يجـد هنـاك لا التَّصفيق ولا الرَّكض خلفه!!، فإذن لن يكون (الأنا) متواجداً معه هناك!!، أما حينما يعـود في إجازة لبلده، فإنه يصبح في نظرهم بطلاً، مُكِرّاً مُفِرّاً، كَعَنْتَرَةَ العبسيّ، حينما أَحْضَر النُّوق الحُمْرِ مَهْراً لِحَبيبته عبلة، من ديار بلاد النُّعمان بن المُنْذر!. وهكذا تزيد لديه حالات التضخُّم كُلَّما رأى ذلك الاهتمام والاعجاب المتزايدَيْن من أطراف أصحاب الأَرْدِئَةِ المُتَمَسِّحِين الذين يتحلَّقون من حوله!!.

حدثني أحد الزملاء قال:

كنت ما زلت أذكـر قِصَّـةً حينما كنت صغيرا لشاب كان قد تَغَـرَّب، وذهب إلى إحـدى البلاد البعيدة، وقد كنا نترقب عَوْدته وَنَحْسِبُ الأيام والـدَّقـائق حينمـا يعـود، وقد كانت تذهب الوفود لاستقباله إلى أرض المطار، وحينما كانت تعود تلك السيارات التي تُقِلُّهُ، وَتُقِلُّ وَفْدَ الاستقبال الذي معه، كُنَّا نَتَعجب من كثرة الشَّنَطِ

التي يُنْزلونَها من داخل هٰذه السيارات!! وقد كُنَّا نتصور ونتخيَّل أنَّ كل هٰذه الشُّنط مليئة بالـذهب والنقـود، خاصة وأن بعض أفراد أقـربـائه ممن هم في سِنِّنا، كانو يُكْثرون لنا في اليوم التالي من الحـديث عن الأموال التي أَحْضَرها، وعَدد الشُّنط التي تَحْتويها هٰذه الأمـوال، لِدَرَجةٍ قد تصل بأقربائه الصِّغار إلى حَدِّ الجَدَلِ والاختلاف بشأن عَددها!! فمنهم من يقول أن الشُّنطة الحمْراء، تحتـوي على المـلابس، وأن الأربعـة الأخـرى: اثنتان منهما، تحتويان على الذهب، والأُخْريان على النقود!!، فَيُقاطعُ الآخَرَ زميلَهُ قائلا: لا!!. فالأربعة كلُّها تحتوي على النقود!!، وهو لم يُحْضِـرْ مَعـه أَيَّةَ ملابس!!، لأَنَّهُ يريد أنْ يتوجَّهَ في يوم غد إلى المدينة لِيَشْتري كُلَّ لوازمه ولوازم أفراد عائلته منها!!، وهكذا يدور الجـدل، ويحمىٰ وطيسُ النِّقـاش!!. وأنـا وغيري ممَّنْ نسمـع ونندهش ونتعجب!!، حتى أَنْني ما زلتُ أذكرُ أَنَّني كنتُ قد أَغْبِطُ أقرباءَهُ الصِّغار وأَحْسُدُهُمْ، لأنهم يَمُتُّون إليه بِصِلَة، ويستطيعون الجلوس والحديث معه!!، ثم تابع ذلك الزميل حديثه قائلا: قد كنت أُكَلِّم نفسي بنفسي، وَأُحَـدِّثُهـا أحيانـا: لماذا لم يكن لي قريب، يُشْبِهُ هٰذا الإِنسان في ثرائِهِ، وفي جاهِهِ هٰذا!!، فهناك لي بعض الأقرباء، ولكنهم لا يملكون جاهَهُ ولا ثراءَهُ ولا سُمْعَتَهُ!!، ومع ذلك فهم غَيْرُ مُعْترفين بأبي ولا بأفراد أُسرتي، لأنَّ والدي كانَ فقيراً، غَيْرُ واسع الثَّراء!!، وعلى الرَّغم من فَقْرِ والدي المُدْقع، إلاّ أَنَّه قد كان كبير النَّفس، عالي الهِمَّة، سَخِيَّاً وكَريماً، له نفسٌ تترفَّعُ على أنفس الأغنياء، وأصحـاب الثرْوات، وَتُطاولهم مَهْما عَلُوا،

وَمَهْماَ سَمُوا في الآفاق!!، فَنَفْسُ الكريم مهما كان فقيرا فهي نَفْسٌ طاهرة عفيفة، لا تَشَوبُها أيَّةُ شائبة، ولا يصلها أيُّ تدنيس!! وواصل الزَّميل حديثه قائلا: رَحِمَكَ الله يا والدي . . . فكم أعطيتنا من هٰذه الثَّروة التي ما نَضَبَتْ، ولنْ تَنْضُبَ أبداً، لأنها ثروةٌ أصيلة تتزايد كُلَّما مَرَّتْ عليها الأيام، وَشَحَنَتْها السِّنين، بألْسِنَةِ الذَّاكرين لها!!.

وأضاف الزَّميل: قد ما زلتُ أذكرُ هٰذا الشاب، حينما كان يتوجَّهُ إلى أَحَدِ بيوت الأقرباء، فقد كان يتجمَّع حَوله، عدد كبير من الشَّباب والكهول والشيوخ، ويضعونه في مُقَدمتهم، يُيَامِنُه كَبيرُهُم، وَيُيَاسره آخَرَ لا يقلُّ عنه دَرَجة، ويسيرُ الآخرون خلفه، وهم يُثْنون عليه، وَيكيلونَ له القصائد المَديحية!!، وَيُضيف الزميل قائلا بتنهُّدٍ وحسْرة: مثل هٰذه العادات والتَّقاليد يجب علينا أن نَكُفَّ عنها، وأنْ لا نظلَّ نركض خلف أُحْصِنَةِ راكِبيها، لأن هٰذا الرَّكض، سوف لن نجنى من ورائه أيَّ شيء، غيرَ الغُبارِ وَصَوْتَ قَرْقَعَةِ حَذْوِ هٰذه الأَحْصنة التي تجري خلفنا، ولن نستفيد من هٰذا غيرَ الاستهزاءِ بنا وبعقولنا!!، أما وأنَّ زركشته هٰذه وهو يمتطي حصان المال هٰذا، فلن يُفيدنا مُطْلقا، لأنه هو الرَّاكب ونحن السَّائرون على أقدامنا خَلْفه!!، فالرَّاكب لا يتعب، والماشي على قَدَميه يتعب وينوءُ أخيرا، تحت عبء الغبار المتراكم وحرارة الشمس وطول المسافات البعيدة!!، فإلى أيِّ طريقٍ نركض، وإلى أي اتجاه نسير!!، وقد أعمانا الأعجاب وَسَاقَنا وراءَهُ!!، وإزاء ذلك فقد خَلَقْنا نحن بأنفسنا أُناساً يَتَمايزون ويترفَّعون علينا، وهم في

واقع الحال، أُناسٌ عاديون مثلنا تماما!!، فهل يستطيع المال أن يحدث هٰذا التَّمايز وهٰذا التَّرفع؟!، وهو في طبيعة الحال، وفي حقيقة الأمر لن يقوم بتوزيعه علينا!!، ولن نكسب منه درهما واحدا مَجَّانا. فهو يريد أن يَأخذ ولا يُعطي!!، فلماذا هٰذا العَمَى والطَّيش؟!!، نرجو الانتباه!!.

أما إذا ما تناولنا فئة أصحاب متوسطي الحال، والتي تتشكل في معظمها من موظفي القطاع العام، فإننا قد نجد أن دَخْلَ هؤلاء محدود تماما، وليست تصل إلى تلك النِّسبة التي يتمتَّع بها أصحاب الأعمال الحُرَّة والثَّراء الفاحش، فهم يستلمون في نهاية كُلِّ شهر، مُرَتَّبا بسيطاً يُغَطي كافة مصاريفهم، ويستطيعون بكل حيطة وحذر شديديْن، أَنْ يُوَفِّروا لهم مَبْلغا بسيطا يَدَّخرونه كرصيد خاصّ بهم!!، وإذا ما تَفَحَّصْنا أفراد هٰذه الفئة، فإنَّنا قد نجدها تُشَكِّلُ غالبية كبيرة من أبناء المغتربين. أمَّا فئة الأغنياء، واسعو الثراء التي سبق الحديث عنها قبل قليل، فهي حسب اعتقادي لا تَتَعدَّى ٥٪ من تَعْدادهم، أمَّا الطبقة المتوسطة، فهي تكاد تشمل حوالي ٧٥٪ من تعدادهم، أما فئة العمال، وأصحاب الأعمال الأخرى المشابهة، فلا أعتقد أنهم يستطيعون أن يكوّنوا لأنفسهم مشروعا يُعينهُم، على أعباء المستقبل، فحياتُهُم العملية، تكاد تتأرجح بين المدِّ والجزْر، وبالتَّالي فإن ايراداتهم غير ثابتة وغير مُعِينَةٍ على تَحَمُّل أَعْباءِ الحياة!!.

فإذن من خلال عرضنا الفائت، نستطيع القول أن لِحَياة

الاغتراب فائدة رئيسية هامة جدا في حياة البشر، إنها تلك: الفائدة المـادية التي هي عَصَبُ الحياة، والحياةُ العصرية الحديثة تسيرُ وراءَ رِكابِها، ولنْ يستطيعَ إنسانٌ أنْ يَطْمَئِنَّ لِحَاضِرِهِ أوْ مُسْتقبله ما لم تكن جَيْبُهُ عامرةً بهذا العنصر المادي المُثير، ولكن لو جئنا نتتبع حالاتنا نحن المغتربين، فهل يا ترى استطعنا أن نطمئن إلى هٰذا الحاضر، أو إلى مداخل المستقبل الغامض؟!!.

أظن أن التجربة التي نعيشها بعد الأزمة الحالية التي عصفت برؤوس غالبية المغتربين، قد بددتم كل التراكمات والأحـلام التي بقينا نجترُّها في أحلامنا الماضية، فجلسنا ننعم بها، على وسائد حريرية ناعمة، وعلى فراش وثير، أعمانا بُراق لمعانه، وبَهرتْنا ألوان زركشته، فَعميْنا عن معرفة الأضواء الحقيقية، وعن استشراف أنوار المستقبـل، لأن هٰذه المـادة قد هبـطت علينـا هبوطا سريعا من السمـاء، مثلمـا هبـطت فوق رؤوس أصحابها، فجلس الجميع واجما، وكأنه في حلم مثير لا يكاد يصدق أن الأرض قد أصبحت تفيض من باطنهـا ذهبا!!، فانشغل الناس يجمعون هٰذا الفيض دونما ترتيب أو تنظيم. بل نستطيع القول أن مآثر الفوضى المستبدة في داخـل نفـوسنـا قد بقيت مسيطرة على النـظم الداخلية التي تتحكم في داخلنـا، فأخذنا نبالغ في عمليات الأسراف والتبذير وتوفير كل شيء قد كنّا نَحْلُمُ باقتنائه، وأصبحتْ شهواتنا مفتوحة لكل طعام فاخر، وكل شراب لذيذ، لم تتشرف باستضافته أمعاؤنا من قبل!!.

وهكـذا غَلَبَتْ على أَنْفسنا طبائع المحرومين الذين آنَ لهم الأوان كي يعوِّضوا ما فاتهم!! ، ولهذا فإنَّ المغترب قد أصبح يضيق ذرعـاً بالقـرش، ويحاول بواسطته أن يصبح رجل أعمال، أو أن يفرض نفسه بواسطته على الناس، وأصبح يفكر بإنشاء المشاريع الصغيرة، التي أخذ التنافس يَدُبُّ فيما بينها حتى قضى كل مشروع منهـا على الآخـر!!. هكـذا حينما قَرَعَ جرسُ رحيل المسافرين للعـودة إلى أوطانهم!!، وجدوا أن هٰذا الذي كانوا يعيشونه، هو عبارة عن حُلْمٍ قد تَبَدَّدَ، وأنَّ الغبار قد انقشع أمامهم فجأة!!، فوجدوا في طَرْفَةِ عَيْنٍ أنَّ أيديهم قد أصبحت خالية من شيء اسمه المادة!!، فهٰذه المادَّة التي وضعوها في منافسات إنشاءِ البُنْيان، ومسـابقات شراء الأراضي، والعقارات الغالية الثمن، وفي شراء الكماليات والسيارات الفخمة سوف لن تعيد أخماس أو أسداس أثمانها، إنْ تَمَّ عرضها للبيع!!. فالفوضى في الحياة العملية الغير مُنْتـظمـة هي إذنْ السَّبب الحقيقي في وراء النَّكبـات المـادية والمعنـوية للمغتـرب بعـد رجوعه إلى أرض وطنه، واستعراضاته الفـارغـة لأمـوالـه وَمُقْتنياتـه وكمالياته وَحُبِّ الظهور الشخصي، وَتَضَخُّمِ (الأنا) المُثير، هي عوامل أخرى مُرادفةٌ تقفُ وراء هٰذا السُّقوط المُفاجيء!!، ولولا أنَّني أخشى أنْ أُدْخِلَ موضوعنا هٰذا بالموضوع الذي يليه لأمعنت في وصف المزيد، ولكنني أحرص تمام الحرص على أن أضع كل مادة في مكانها خوف الاختلاط، وخوف الوقوع في الفوضى التي أُحَذِّرُ منها الآن!!.

ففوائد الاغتراب جَمَّة ومتعددة ولا نستطيع أن نُحْصيها، إنْ نحن قد عرفنا كيف نُنظم أنفسنا ونعرف كيف نستثمر الموارد والعائدات المادية وإنْ نحن قد عرفنا كيف نحمي أنفسنا من غُول الاغتراب المتوحش الذي قد قَذَفَ في قلوبنا الرُّعب!!، وَعمَّقَ في داخل نفوسنا الجروح العميقة، وكذلك إنْ نحن عرفنا كيف نُنْفِقُ أَمْوال الاغتراب على أنفسنا، وعلى المشاريع التي نُقيمها، وأنْ نَحْمي القرش الذي حصلنا عليه بعرق الجَبين، لا أنْ نتركه لُقْمة سائغة لِتَغَوُّلِ المُتَغَوِّلينَ والمُنْتَفعينَ والطَّامعين!!.

ولكن من أين للمغترب أن يفيق إلى رشده!!، فهو كفلاح قد نزل إلى مدينة كبرى، فأدهشه ما فيها من أمتعة وبضائع نفيسة، لم يشاهد مثلها من قبل!!، فرآهُ أصحابُ المدينة وتُجَّارها، وهو يَتَلَفَّعُ بعباءَته وَيَتَأَنَّقُ في لباسه، يتمطىٰ في مِشْيَته، فَتَهامس التُّجار ومن لَفَّ في لفيفِهم، كيْ يُوقِعوُا بهٰذا الفلاح الطائش، فأخذوا يَمْتدحونه وُيُغْرونَ به، وَيُلْقونَ إليه بِحَبائل المديح حتى ظَنَّ نفسه، أنَّه فِعْلاً رجلٌ نادرٌ من رجال زمانه!!، فأخذ يُقْبِلُ على شراء بضائعهم بأثمان باهظة جداً، دون أن يُحصي ما ابتاع به وما بَقِيَ معه!!، وظلَّ على حاله هٰذا، إلى أنْ جاءَ وقت الغروب، فأراد أن يذهب لأحد المطاعم كي يتناول طعام العشاء، فلمْ يجدْ قِرْشاً في جَيْبه لِيأْكل!!، وبعد ذلك ذهبَ إلى إحدى الفنادق لِيَبيت، فَطَرَدَهُ أهلُ الفندق لأنه لم يجد في جَيْبه قرشا لِيَنام!!، فرآهُ أهالي المدينة، وهو نائمٌ على الرَّصيف في صباح اليوم التَّالي، فأخذوا

يتضاحكون عليه، ويستهزئون به، وَيَسخَرون مِمَّنْ هم على شاكلته، وَسخِروُا كذلك من مظهره المُزْدَهي المُزَرْكَش، الذي كان عليه وقت الصَّباح!!، وما أصبحت عليه حالَهُ الرَّثَّة في وقت المساء!!.

هٰذه هي حال الاستعراض والخيلاء التي أُنَبِّهُ إلَيْها، فهي حالة بغيضة سَبَّبها عوامل نَفْسية من الحرمان المتراكم في الماضي، هٰذا الحرمان الذي قد خَلَقَ الفوضى وسريان حالات التشتت وضياع الماضي والحاضر والمستقبل!!.

إذَنْ، هٰذه هي فوائد الاغتراب استعرضْنا لِذِكْر الماديِّ وغير الماديِّ منها، وعرفنا أن للاغتراب فوائد هامة، فهي عامل مساعدٌ على التَّعـرُّف على كثيرٍ من حالات الشعـوب وأجوائها وبلادها، سواء كانت هٰذه المعـرفـة تتعلق بالعـادات أو التقـاليد أو تتعلَّق بالثَّقافات أو بالأشكال أو بالدِّيانات أو بالعقائد، أيْ أَنَّ هٰذه المعرفة قد تتعَّلقُ أيضا بالأشخاص، وكذلك بالبيئة الجغرافية وتضاريس البلاد، التي يحل فيها المغترب.

كذلك هناك نقطة أخرى ذات فائدة كبرى للمغترب، وهي أنَّ المغتـرب يستـطيع من خلال احتكـاكـه المتزايد بهذه الجاليات المتنوعة، التي تتواجد في بلاد الاغتراب أن يستفيد من مهاراتها وخبـراتها، ويستطيع أن يضيفَها إلى مهاراته وخبراته، وبهذا فإن ثقافته من هٰذه النَّاحية ستتسع وتتنامى، هٰذا عدا من أنه قد تُصْبح لديه القُدرة على الصَّبر والجَلَدِ وقوَّةِ التَّحَمُّل، هٰذا إذا بَقيَتْ هٰذه

الأمور طبيعية لَدَيه!! ، أما إذا ازدادت عليه الأحمال الثقيلة ، وفلتت الأمور عن حَدِّها، فلا أظن ذلك سيعكس عليه أثرا إيجابيا، بل بالعكس سيباشر فورا في تحطيم إرادته وقوّته النّفسية!! .

وإذا كنّا قد تعرفنا على هٰذه الفوائد في صفحاتنا الماضية ، فَلِماذا لا نفتح صفحات أُخرى قادمة لِنَبْحث فيها عن أضرار الاغتراب، وإذا كُنّا قد فعلنا ذلك نكونُ قد وضعناه في كَفَّتَيْن، لِنَرى مَنْ مِنْهما هي الراجحة، الفوائد أم الأضرار!! ، أم أن الكفَّتَيْن ستتعادلان!! ، فمن يَدْري؟!! ، على كل حال، فالصَّفحات القادمة مفتوحة أمامنا إنْ شاء الله ، وَيَبْقى القارىء هو الحَكَم، والفاصلُ الأخير!! .

أضرار الاغتراب

إذا كانت النَّاحية المادية هي الواجهة الرئيسية اللامعة التي تَبَدَّىٰ لنا بأشكالها الهندسية الباهرة وفنون معماريتها الفائقة، وألوانها البرَّاقة الجذَّابة، التي تُسْحِرُنا وَتَجْذِبُنا، وتأْخُذُ مِنْ أنفسنا كلَّ مأْخذ، وَتُغَطِّي على أعيننا من أطيافها الحُلْوة السَّاحرة، حتى نكاد نغفوا طويلا على عتبات الغربة، فلا نفيق إلَّا بعد أن تَسْبقَنا عَجَلات السِّنين المارَّة، وهي تضحكُ وَتَسْخَرُ من عقولنا النائمة الحالمة المسترخية!!، وهي قد عَلِمَتْ أنَّ الفنَّ الهندسي والمعماري لهذه الواجهة، وَطِلاؤها الذهبي اللاَّمع قد سَيْطر على جميع حواسِّ أعضائنا!!، وإننا قد سَلَّطْنا أنظارنا المنبهرة تجاه هٰذه الواجهة فقط، دون أن نُكَلِّفَ أنفسنا عَناءَ تَفَقُّدِ الواجهات الأخرى الخلفية، التي لا نكاد أنْ نراها، ودون أن ندخل أيضا إلى داخل القَصْر وَنَتَفَحَّصَ أجزاءَهُ ومبانيه وَغُرَفَهُ الدَّاخلية، ونرى بأنفسنا ما هي نوعية الأثاث الذي يحويه!!، وما هي صفات الواجهات الأخرى له!!، إذن فنحن قد تَمَكَّنَّا من رؤْية الواجهة الرئيسية، وَتَعرَّفْنا أيضا على نوعيتها، وبعد أن فَرَغْنا من ذلك، نود عزيزي القارىء أنْ نَصطحِبكَ معنا إلى داخل هٰذا القصر الذي يتراءى لنا بهذه الفخامة، وَلْنَبْدأْ بالتَّعرُّفِ على أجزاء هٰذا القصر الذي يبدو لنا فخماً، فَمَنْظَرُهُ يتراءى لنا من فَوْق ظهر تَلَّةٍ أو سَفْح جبل عال،

فنـراهُ يُطِلّ علينا بشكله الخارجي الجذّاب، وها هي الآن بَوّابَتُهُ الرئيسيةُ مشرعة، فلماذا لا ندخل فيه؟!! ونحاولُ النّظر فيه بأنفسنا؟!!.

نعم، عزيزي القارىء، دَعْنا نَدْخُلُ وها نحن بِمُجرّد أنْ تَطأ أقـدامُنـا بوابـة القصـر الـرئيسية، وَتَهُمُّ بالـدخول فإنَّ إحساساً ما بالدّهشة والإعجاب، وذلك للوهلة الأولى قد يُسَيْطر على حواسنا، فقـد تتزاحم أقدامنا، وكلنا شوق كي نُشْبِعَ نَظَرَنا إلى داخل ما لـم نتمكن من أنْ ندخله مِنْ قَبْلُ!!، وحينما نَطْرُقُ الباب الخارجي، فأول ما يُطِلُّ علينـا من خلف هٰذه البـوّابـة الـداخلية رَجُلٌ باهت اللّون، أشعث، أغبر الشّعر، تُسَيْطر عليه نوع من الكآبة، والوُجوم الدّاخلي!!، ومع ذلك فهو يحاول أن يَشُدَّ من أزْر نفسه!!، ويُقيمُ من تَقَوُّس عموده الفقري!! فيحاول أن يقف مُنْتصب القامة، وأن يصطنـع لنفسـه ابتسـامـة تتناسب مع فخامة واجهة القصر الذي يسكنه!، ولكن من أين للابتسامة الحقيقية أن تخرج؟!. فَصَفْراوية ابتسـامته هٰذه تبدو لنا واضحة أشدَّ الوُضوح!! وتظهرُ معها كذلك حالات من الإرهـاق والتّعب اللّتان تَبْدُوانِ واضحتانِ على نواحي نفسه!! فيتراءى لنا منذ الوهلة الأولى أن هٰذا الشخص الذي يَقْبُعُ وراءَ هٰذه الـواجهـة الفخمـة لا بد وأنـه يُعاني من مشكلات جَمَّة وحـادَّة!!، فقـد سبق وأنْ تَطرَّقْنـا إلى تلك المعـانـاة الـدائمـة والمستمـرة!!، التي يجب عليه أن يتحمَّلهَا، فهو إنْ أرادَ أن يُبْرزَ شخصيتـه في نطاق مستواها المعتاد، فإنَّه لا بدَّ وأنْ يُواجِهَ صورةً

عَكْسية تمـامـا تَحُضُّ من شأنهـا كَأَنْ يُواجِـه سيلاً من الانتقادات الحارة، أو الألفاظ المشينة التي تُحَقِّرُهُ كأَجْنبي!!، وإذا ما استمرَّ في مُحاولات إبراز شخصيته على الطريقة التي اعتاد أن يمارِسَها في بَلَده، فإنَّ صورة الإحباط المُتَكرِّرة، لا شَكَّ أنها ستعمل على تَفْتيته وإحباطه!!، مهما كانت شخصيته مُتَماسكة، وحينها سينأى بنفسـه مَنْأى سَلْبيا، فَيَكُفُّ عن مُلاحقة حقائق الأمور، ومع مرور الزَّمن تُصبح لا تَهُمُّهُ الوقائع الثابتة، ولا الحقائق الصحيحة، سواء التي تتعلق بنـــواحي شخصيتـه أو نواحي الأمـور أو الشخصيات الأخرى!، ثم لا يلبث أن يُصابَ بداءِ التَبَلُّدِ، من جَرَّاء تجاوزه عن كثير من الأمـور الشخصية التي تتعلَّق به كإنسـان، مما يسفر عن ذلـك طَمْسُ شخصيتـه، وعدم الوعي الكامل لِمَشاكله المُتَراكمة وعدم التَّركيز والبحث عن حَلٍّ ثابت يقاس على أساس من المعيار الخُلُقِي الشَّامل!!.

وإنَّنا حينما نريد أن نُسْهِبَ في هٰذا الموضوع، بشكلٍ أَوْسَعَ وأَشْمل، فإننا لا بُدَّ وأن نَسْتعيد نُقطة هامَّة، سَبَقَ الحديث عنها في الصفحـات المـاضية وهي تَكْمُنُ في عدم تَمَكُّن المُغْتـرب من ممـارسة فكره بحُرِّية تامة، أو الكشف عن ثقافته الواسعة، سواء كانت هٰذه الثقـافـة عِلْمية أو سياسية أو اجتماعية، وهو في هٰذه الحـالـة لا يستطيع أَنْ يَتَحدَّث في مثل هٰذه الأمور بِشَكْل عَلَنيٍّ وظاهر!!، وهو إن اصطَحَبَتْهُ الشَّجاعة أو الجُرأة في الحديث، فإنَّ حالةً من الخوف والحذر تَظَلُّ تُصاحبه!!، فإذن لا بدَّ له وأن يَظَلَّ مُنْـزويا في دائـرة من الكَبْت والحـرمان الثَّقافي!!، مُنْغلقا على

نفسه، مُنْطويا تحت ظلها القاتم!!.

وإذا ما كانت هٰذه حالُهُ مُصابة بأمراض شَتَّى من أنواع الحرمان المُتَعـددة، فَهُنـاك الحـرمـان النَّفسي، وهناك الحرمان الثَّقافي، وأيضا الحرمان الفكري، وحرمان آخر وهو: حق مُمارسته لِبَعض الحُـرِّيات التي ليس لهـا أي أثـرٍ يُذْكـر من الناحيتين: المنظور السياسيّ أوَّلا، والمَنْـظور الاجتماعي ثانياً، أو أيَّةِ مناظير أخرى مُشابهة!!، أضف إلى ذلك مرض طمس الشخصية وانتفاء وُجودها بالشَّكـل الذي يُحَطِّمُ كيانها ووجودها!! لأنَّ تَفاعلها داخل إطار مجتمـع غريب عنهـا، لا يمكن أن يحقق لهـا طريقـة البُروز أو الظُّهور، خاصة وأنه سبق لنا القول أنَّ شخصية المواطن، هي التي تَنـالُ حَقَّ التَّكوين المُمَيَّز على حساب شخصية أخرى ضعيفة، خائرة القوى، لأن عوامل الظهور لدى المواطن، مدعومة ومسنودة عنده بشكل بارز، ولهذا فهو يشعر بهذا الامتياز الكبير الذي يحقق له القـوة الشخصية!!، بينمـا يحـدث العكس من ذلـك تلك الشخصية الضعيفـة التي يتـزايد هزالها أمام عوامل كثيرة متعددة ومتنوعة سبق وأن أشرنا إليها في الصفحات الماضية، والآن وبعد أن تعرَّفنا على الأضرار البالغة التي تمس شخصية المغترب، فإننا لا بد وأن نستعرض الجوانب الأخرى التي تمس أُسرته، وأفراد عائلته!!.

حينما نوقن تماما بأن المغترب يعيش حياته المظلمة البائسة بهذا الشكل، فإنه لا شك وأن تنعكس كل هٰذه التأثيرات السلبية على جميع أفراد أسرته!!، فزوجته إذا كانت عاملة مثلا، فإنها لا

شك وأن ستنال جُزْءاً كبيراً من نصيبها البائس المحروم!!، وإذا كانت ممن هي مُلْحقةٌ من أجل خدمة زوجها وأفراد أسرتها، فإنها لا بد وأن تتأثر إلى حد كبير بنفس التأثيرات التي تقع على كاهل زوجهـا، ومن ثم ينعكس هٰذا كله على أبنـائهم!! فالأبنـاء لا يستطيعون أن يَتَشرَّبوا تلك الروح القوية التي يجب أن يستمدوها من الأبَوَيْن، فحينما يكون الأبُ خائراً ينوء تحت أعباء وهموم غربته الثَّقيلة، فإنه لا يستطيع تحت وطأ نعال هٰذا الكابوس، أنْ يُعطي نَفَساً قويًّا وحـارًّا إلى أبنـائـه!!، فهناك مثلا قاعدة تقول: «فاقد الحنان لا يعطيه!!» وهٰذه القاعدة أو المَثَل يجب علينا أن نُطَبِّقهَا على سائـر أنـواع الفُقْـدان الأُخـرى التي يفتقـدهـا أشخـاص الاغتراب!! ولن تصل الأمور إلى هٰذا الحد، بل أن الأبناء بفعل احتكاكهم المدرسي، لا شك وأنهم سيتعرَّضون لِبَعض الإهانات الشخصية المتكـررة، من طَرَف زملائهم أبناء المواطنين، وهٰذه الإهانات المبكرة، التي يتعرض لها الطالب الأجنبي، سَرَعان ما تُشْعـرُهُ بالإحباط المُبَكِّر، خاصة وأنَّهُ قبل دخول المدرسة يكون قليل الاختلاط بِعالمه الخارجي، وهويَتوَّق إلى هٰذا التَّطَلُّعِ حينما يَبْعَثُـهُ والـداهُ بِلبـاسـهِ الجـديد، وحقيبتِهِ المدرسية الجديدة إلى المدرسة، وقد تراهُ يزهو بنفسه في الصَّباح منذ اليوم الأول لدخوله المـدرسـة، فَيَبْتسمُ مِنْ حَوْلـهِ والداه، فتراهم يُراعونَهُ وَيُشَجِّعونَهُ وَيَفْتحَون لَدَيْهِ آفاقاً كبيرة من الآمال الباسمة التي يعتقد أنه سيجدها في المدرسة، فهناك المدرِّسُ مثلًا بانتظاره وهناك أصدقاؤه التَّلاميذ الـذين سَيُصاحب عدداً منهم، وهكذا .... وهكذا ... وَيَغُذُّ

التِّلميذُ المِسكين الخُطى مُسْرعاً نحو مدرسته!!. ففي اليوم الأول سيجد الحَلْوى بانتظاره، ويحاول المديرُ وطاقَمُ المدرسين أن يَبُشُّوا في وجهه، ووجوه زملائه التلاميذ الجددُ!!، ولكن من يدري كيف يستطيع هٰذا المُدرِّس الأجنبي أن يَبْتسِمَ مرةً أُخرى لتلاميذه، سواء الجُدُدَ منهم أو لغيرهم!!، لأنهم كما قلنا قد فَقَدوا كثيراً من المُقومات النفسية التي قد عملت على خُوارِ قُواه!!، ولهذا فإنه من الطَّبيعي جداً أن يُصابَ هٰذا التلميذ بالخذلان المُبَكِّرِ لِتَطلُّعاته وآماله الباسمة، وَتَخَيُّلاتِهِ الحالمة، حينما تَصْدِمُ طَبْلَةَ أُذنيه أوَّلَ شتيمة أو إهانة من أَقرب تلميذ مواطن يجلس إلى جانبه!!.

هٰذا أوَّلا، من ناحية أُسرة المغترب في بلاد الاغتراب، أمَّا من ناحية علاقته بباقي أفراد عائلته أو أقربائه في وطنه، فإنْني أعتقد أنَّ العلاقة ستكون بين أمْرَيْن: فإمَّا أنْ تكون هٰذه العلاقة قوية وراسخة ومبنيَّة على أُسس قوية من التَّعاون والتَّفاهم والوضوح، هٰذا إذا بَقِيَ المغترب سخيا جواداً كريما، لا يُبالي في بذل أيَّة ترتيبات مالية تُطْلَبُ منه!!، وإمَّا أن تتدهور هٰذه العلاقة إلى درجة سيئة من الانحطاط، وذلك بمجرد أن يرفض أو يُعطي أو يَمْنح أو يَهبَ ما يُطْلَبُ منه!!، وفي هٰذه الحالة فإن قَدَراً كبيراً من الشَّحْناءِ والبغضاء ما تَلْبَثُ أنْ تَغْلي في عروق هؤلاء الذين يَطْلُبون!!، وما تَلْبَثُ أيضا أن تَتراكَمَ كميات كبيرة من السُّحُب السوداء والغبار المُتَراكم الذي يغطي سماءَ العلاقة الاجتماعية فيما بينهما!!، وحينئذ فليس هناك مَناصٌ من أن تتحلل هٰذه العلاقات وَتَنْقطع من جذورها

وَأُصولها!!، وفي نفس الوقت يُصاحبُ هٰذا كله نوع من التَّحاسد والتَّقاطع والتَّنابذ الذي من شأنه أن يَفْري صِلات المودة والقُربى، ويعمل على تفتيتها!!، وإذا ما وصل الأمر إلى هٰذا الحد، فإن هٰذا بالتالي سينعكس على القَالَبِ الاجتماعي وَيَضَعُ نُقْطَةَ تَماسكه واتِّحاده في داخل الدَّائرة الحمراء التي تُنْذِرُ بوقوع الخطر!!.

فإذن، الإنذار بوقوع الخطر لا يقع على الأسرة وحدها، أو أنَّ أخطاره لا تحيق بها بمفردها، وإنما يتجاوز هٰذا الخطر ويعم أرجاء المجتمع قاطبة، وذلك حينما نُوقِنُ تماماً أنَّ أي مجتمع من المجتمعات هو عبارة عن أفرادٍ وأُسَرٍ، وهٰذه بالتالي تُشَكل القالب الاجتماعي برمَّتِهِ، إذن فالنَّتيجة السَّلبية لم يقف تأثيرها على المغترب نفسه أو على أفراد أسرته وعائلته أو حتى على أقربائه، وإنما يمتد هٰذا التأثير السَّلبي على أفراد المجتمع أَجْمَع، فتنقطع أواصرُ أو عُرى هٰذا المجتمع، ومن ثَمَّ يُصبح التَّحاسد شيمةً من ضمن الشِّيَمِ المُؤَثِّرة التي تَهُزُّ أركانه، وتقطع خيوطه وحبائله القوية المتماسكة.

وإذا ما أردنا أن نُقرن حالة المغترب في بلاد الاغتراب، وهوانه المرير عند أصحاب البلاد، وانطماس شخصيته وَفُقدان قيمته كإنسان يجب أن تكون له كرامة وشخصية هناك، فإنَّ هٰذه الحالات التي استطاع المُواطن صاحبُ البلاد أن يَنْتزعها من المغترب عُنْوَةً وَيختزنَها لنفسه، وَيَشْحَنَ بها نَفْسَهُ شحناً قوياً على حساب غَيْره، فإنَّ هَذا الهَوان الذي فَرَضَهُ المُواطن على المغترب قد يُشَجِّعُهُ،

وَيَبُثُّ في نفسه الجُرأةَ كي يمتدَّ هٰذا التأثير، وهٰذا التَّطاول إلى مجتمع المُغترب نَفْسه!!، فحينما يَصْغُرُ المُغترب في عَيْنِ المُواطن، فإنَّ نَظْرَةَ الصِّغَرِ هٰذه، سَتَطالُ مُجْتَمَعَ المُغترب أيضا، فقد تَلْمس ذلك من بعض الأهالي الذين لا يَتردَّدون من إظهار هٰذه الصِّفة إليك سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فهو يكشف لك أحيانا عن بعض العيوب وأنواع الفقر الموجودة في بَلَدِكَ!!، ولهذا فإن فِكْرَتَهُمُ عن بلاد المُغْتربين، هي فكرةٌ تحملُ في طَيَّاتها عدم الاحترام والتقدير!!، وقد تَهونُ هٰذه المجتمعات عندهم كما يَهونُ المُغْترب نَفْسُهُ عندهم هناك!!، ولهذا فإن تكوين هٰذه العنجهية، والنظرة العُلْيا إلى غيرهم قد تَجْعَلُهُمُ يزدادون كِبْراً وغطرسة وَنَظْرَةً لا مُبالاةٍ إلى غيرهم، وقد يصل هٰذا الأمر على مستوى سكان الهِجَرِ والقُرى الصغيرة التي لم تخرج يوماً ما من قوقعتها الفطرية، ونظرتها القديمة، فيظن الفَرْدُ منهم أن العالَمَ كله موجودٌ في قريته أو هِجْرَتِهِ فقط!!، وَأَنَّ بلدان العالم الأخرى هي عبارة عن بُلْدان فقيرة جائعة تَتَلَوّى من الحرمان والألم!!.

فأضرار الاغتراب إذن، هي قد طالت الإنسان الفرد والأسرة والمجتمع أيضا!!، ولكنها لم تقف عند هٰذا الحد فقط، وهي حينما قد امتدت لتشمل الأمور المعنوية والأمور النفسية، فهي أيضا قد نَفَذَتْ إلى مُنْعَطَفٍ آخر، لِتَصل إلى الأمور المادية والاقتصادية !! وهٰذا الأمر الذي نقوله قد أَثْبَتَتْهُ الأزمة الحالية!!، فهي بِقَدَرِ ما ساهَمَتْ في السّنوات الماضية في تَقْوية قواعد وأَرْكان

الاقتصاد سواء على مستوى الأفراد العاملين وَأُسَرِهم أو بُلْدانِهم، فهي قد أسقطت هٰذا الإدّعاء في ظَرْفِ بُرْهة قصيرة من الزَّمن، وَأَثْبَتَتْ أنَّ هٰذه الدّعامة الاقتصادية، ما لَبِثَتْ وأنْ أسْقطتْ هٰذا المغترب، وأفرادُ أُسرته في سُبُلِ الضَّياع!!، وها نحن نعيش الآن هٰذه الأزمة الاقتصادية الخانقة وهٰذا الاختناق السُّكاني الكَثيف الذي لم تستطع بلاد المُغْتربين أنْ تتسع له دفعة واحدة!!!، وها نحن نرى كثيراً من هؤلاء المغتربين العائدين وقد ضاقت بهم سُبُلُ تحصيل المال والمصروف اليومي الذي أصبح يفتقر إليه أكثر العائدين!!.

فالمسألة التي نُثيرهُا على هٰذا الصَّعيد لَيْست مسألة تقتصر في حَدِّ ذاتها على المسألة المادية والافتقار إليها، وإنَّما المسألة هي مسألة سقوط الفرد من العُلُوِّ الشَّاهق، فَمِنَ المال والثَّراء الفاحش، إلى الفقر المدقع الرَّهيب!!، الذي من شأنه أن أُحْدَثَ شَرْخاً قوياً في نفوس هؤلاء، وأسْقَطَ تلك النفوس التي كانت تعاني في بلاد الاغتراب من ضغوط نفسية رهيبة، فأضافت إليها هٰذه الأزمة أو التهجير السكاني الكثيف ضغوطا نفسية أخرى!، كاد أن يضع هؤلاء المغتربين المُهَجَّرين في خَيْمَةٍ مصنوعةٍ من الانبهار والذُّهول النفسي الرَّهيب!!.

وانطلاقا من هٰذا الأمر، فإننا نستطيع من خلال حديثنا عن هٰذا الخُسران المادي والنفسي الذي حدث في خلال هٰذه الأزمة أنْ يُبْطِلَ مفعول تلك الفائدة المادية التي رَسَمْنا فوائدها في موضوعنا

السابق، لأن تلك الفائدة المادية التي جناها المغترب، قد أُلْحَقَتْ به في ساعة واحدة خُسْراناً ماديا ونفسيا، وَقَلَبَ كُلَّ المَوازين رَأْساً على عَقِب، وأصبَحَتْ مجموعات المغتربين العائدين تَعُضُّ أصابع النَّدم، لأنها اعتمدت كل الاعتماد في حياتها الماضية، أو سنواتها الفائتة على أنها ستظل تَرْفُلَ في كَنَفِ دُوَلِ الاغتراب في حياتها الأسطورية المبنيَّة على الثَّراء والغِنى واقتناء الكماليات، وسبائك الذهب، والأحجار الكريمة، والقصور الشاهقة!!.

لقد جاءت الأزمة الأخيرة لِتُفَتِّتَ تلك الأحلام الضائعة، وَتُحوِّلَها في لَمْحَةِ بَصَرٍ إلى نوع من الخيال الحالم، الذي ظَلَّ المغترب يعيش على وِسادتِهِ المَحْشُوَّةِ بالرِّيش النَّاعم، فترةً طويلة من الزمن!!.

ختاما نتمنى على الجميع الذين اعتمدوا اعتماداً كُلِّيا على جَنْيِ المَحْصول المادي من بلدان الاغتراب أن يُعيدوا النَّظَرَ في هٰذه المسألة الهامة، وأن يتفرغ الأخصائيون الاجتماعيون بإلْقاء نظرةٍ عميقة على هٰذه الناحية التي أُهْمِلَتْ إهمالا كلياً، فلَمْ يتعرض أَحَدٌ لِذكرها، أو عَرْضِ موضوعها على موائد البحث والتَّقْييم، وكذلك أن يتعايشوا ولو قليلا مع هموم ومشاكل المغترب، ومعرفة وضعه الاجتماعي والنفسي هناك!!، كي لا تقع هٰذه النِّسبة الكبيرة من هٰذه الشَّريحة الاجتماعية في هٰذا الاضطراب والقلق النَّفسي الرهيب.

إنَّني أتمنى أن تقوم هناك دراسات وأبحاث ووضع مناهج في

الجامعات والمدارس، كي يتفهم أيُّ إنسان واقِعَهُ وَمَوْقِعَهُ حين تَضطرُّهُ الظُّروف للهجرة والاغتراب!!، وذلك لأنَّ هٰذا الكَمَّ المُهاجر من البشر ليس هو في واقع الأمر بِعُزْلَةٍ عن تركيبة مُجْتمعه الأصلي!!، بل هو فرع أصيل من تلك الشَّجرة العظيمة الوارفة!!، فإذا ما تعرَّضَ جزءٌ من هٰذه الشجرة الخضرة إلى اليُبْسِ والمرض فإنَّه لا شك وأن تتأثر الفروع الأخرى لهذا اليُبْس، الذي من شأنه أن يُصيبَ الفروعَ الأخرى بكاملها، وَيُعَرِّضُها أخيراً إلى اليُبْسِ التَّام!!.

فلماذا إذَنْ، نُصِرُّ على حالنا الذي نحن فيه، وَنَتغاضى في نفس الوقت عن الأمور الحَيَوية التي تُنْقِذُ مجتمعنا من شَرِّ غُولِ الاغتراب، الذي يتربَّص بنا ونتخلص في نفس الوقت من تلك النظرة المُهينة، التي ينظرها إلَيْنا أصحابُ بلاد العمالات!!، يجب علينا إذن أن نحفظ أَنْفسنا من شَرِّ التَّقلُّبات التي تَعْصِفُ بنا من بين الحين إلى الآخر!!.

لقد أراد المُغْترب نفسه أن يُطَبِّقَ نفسَ المعايير التي نَظَرَها إليْهِ أصحابُ البلاد التي يقيمُ فيها، وللأسف حينما يعود إلى بلده في إجازته تجِدُهُ يمارسُ نوعاً من العنجهية، وَعُلُوٍّ في النَّظرة على مجتمعه وأقربائه وأهله، مما زاد الطينَ بَلَّةً، فَخَلَقَ نوعاً من الضَّغائن والحسد والانشقاق بين الأفراد والأُسَر!!. وها نحن الآن، نرى هؤلاء المُهَجَّرين وقد عادوا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ، نَلْمَسُ كثيراً من أنواع التَّشَفِّي تَعْصِفُ على رؤوسهم، لأنَّهم في يَوْم ما لَمْ يَلْتصقوا

بِمُجتمعهِم تمام الالتصاق، بل كانت علاماتُ عدم الانتماء لهذا المجتمع تكاد ترتسم على وجوه الكثيرين منهم!!، والآن وقد عاد العائدون من المَهْجَرِ، فماذا هم فاعلون حتى يعود الالتحام الأُسَرِيّ والعائلي والاجتماعي إلى طبيعته!!، إنَّها فترة لا شك أنَّها سَتُمْخِضُ كثيراً من الافرازات السَّلبية والايجابية في المُستقبل، ولكنْ كُلّنا أَمَلٌ أنْ تعود اللُّحْمَةُ قوية مُتَماسكة، وأنْ يعودَ الفرعُ إلى الأصل، تماماً كما يعودُ الابنُ الهارب من أَبَوَيْهِ لِيُلْقي بنفسه في أحضانهما، بعد أنْ عانى كثيرا في أوقات الهروب والهُجْرانِ، فَعَرَفَ أخيراً أنَّ الصَّدْرَ الحنون هو الوطن، وليس غَيْرُ الوطن يُعْطي، فهوَ الأبُ والأمُّ في آنٍ مَعاً، وعلى الوطن أنْ يفتح ذِراعيْهِ وأن يَمْسَحَ الدُّموع عن أجفان أبنائه مهما بَلَغَتْ درجاتُ العقوق والعصيان!!.

انتهى الكتاب بحمد من الله وتوفيقه
وصلى الله على سيدنا محمَّد
وعلى آله وصحبه أجمعين

نبذة عن حياة المؤلف

ولد المؤلف في قرية «كفر الديك» وهي قرية من قري الضفة الغربية التابعة لمدينة نابلس وهي تقع إلى الغرب الجنوبي منها بحوالي ثلاثون كيلو مترا على سطح جبل شامخ عال أصبحت هٰذه القرية تمتد في عمرانها إلى المناطق المحيطة بها وهي عبارة عن جبال وسهول قد كستها الطبيعة من حللها الخضراء مثل أشجار الزيتون والتين والعنب وأشجار اللوز وغيرها مما جعلها غاية في السحر والجمال، وفي ظل هٰذه الطبيعة الساحرة أمضى المؤلف مطلع سنين شبابه هناك حيث داهم الاحتلال الإسرائيلي بلدته وهو يؤدي امتحان شهادة الثانوية، لم يلبث بعد ذلك أن يطيق منظر عساكر جنود الاحتلال وهي تدوس أرضه الطاهرة ببساطيرها النجسة، فقرر الخروج من ربقة الاختلال ليهاجر بعد ذلك إلى إحدى البلاد الإفريقية.

وبعد أن أمضى هناك فترة تقرب من سبع سنوات قرر ترك عمله هناك ليهاجر بعد ذلك إلى إحدى البلاد الخليجية فأمضى هناك فترة تقارب من ثلاثة عشر عاماً، ولم ينس في ظل تلك الحياة الحرجة والمؤلمة أن يواصل تعليمه الجامعي فحصل على شهادة الليسانس، في قسم اللغة العربية وآدابها، ثم أنه لم يستطيع أن يدفن طموحاته الدفينة التي كانت هاجسه الوحيد، فقرر على إثر ذلك اقتحام حقل الدراسات العليا فحصل على شهادة الدبلوم العام للدراسات العليا ثم قام بإعداد بحث الماجستير بعد

ذلك مباشرة وموضوع بحثه كان هو «إبن الرومي والنقاد».

ونظراً لتلك الطبيعة الشفافة والروح المتألقة التي تأثر بها المؤلف من طبيعة بلاده الساحرة، فإن روح الأدب والشعر ما انفكت تكبر وتتنامى في داخل نفسه إلّا أن عناء الغربة وقيودها الثقيلة على نفس المؤلف لم تتح له فرصة التعبير عما يجول في خاطر نفسه، ولهذا فإنه ظل صديقاً وفياً للكتاب يبحث عنه ويفتش عنه لمطالعته على الرغم من شحِّه هنَاك في بلاد الاغتراب.

وقد استطاع إثر ذلك أن يوسع من دائرة اطلاعه وثقافته، زد على ذلك ما أثرته به المصادر والمراجع التي كان يعتمد عليها في إعداد البحوث الخاصة بالدبلوم العام والماجستير، مما أسفر عن ذلك أن أصبح يمارس الكتابة عن جدارة واستحقاق خاصة في كتابة القصة القصيرة والمقالات الأدبية، إلّا أن كتابة قصة طويلة أو تأليف كتاب ظلّ هو هدفه المنشود الذي يسعى إليه، وكان من نتيجة ذلك أن وضع هٰذا الكتاب «الاغتراب» الذي يعتبر من أولى الكتب التي تبحث من ناحية نفسية واجتماعية أحوال المغتربين وأوضاعهم وتقف طويلاً على معاناتهم سواء كان إيجاباً أم سلباً.

والمؤلف لم يضع في اعتباره أن يقف إلى هٰذا الحد، فهو يزخر ذهنه بموضوعات وعناوين لكتب ستجد طريقها إلى النشر قريباً إن شاء الله.

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه الحق والخير والصواب لخدمة الأهداف النبيلة السامية التي نتطلع إليها جميعا، والله هو ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محتويات الكتاب